

المأزني

ساخر العصر الحديث

بقلم د. أحمد السيد عوضين



الدار المصرية اللبنانية

(مشاهير الكتاب العرب)

(للاشئة و للشباب)



للمصنف د. أحمد السيد عوضين

لا يفتى احتفاء الدار المصرية اللبنانية بالعظماء من كتاب الأمة العربية مجرد استرجاع الحديث عنهم ، فذلك دور رواة السير الشعبية ، لينهل بها السطء في ساعات الفراغ ، بل أننا نتوخى في هذه السير مشوار العظمة نفس ، وكيف كان .. بمعنى أننا نقدم هذه الشعلة المقدسة في يدين صاحبها ، وننتج الجهود المضنية التي بذلها ، ونكرس بذلك أمام الأجيال قيمة العمل الإنساني الحاد ، وكيف تكون نتيجته ، فأحياناً لا يرى الناس إلا يريق العظمة دون الوقوف عند الأسباب التي صنعتها . وأما نتوخى أيضاً في سيرة الكاتب إمكانية استدعاء شريحة بكاملها من تاريخنا الثقافي ، بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية .. لتأملها بالترصد والدراسة والتحليل البسيط ، والأسلوب السهل الممتنع ، وتلك غاية أخرى تمكن الأجيال الجديدة من الوقوف على مسار حركة الفكر وتطوره في أمنا العربية وخاصة أننا أشد ما نكون في حاجة إلى تأصيل الفكر ، في خضم التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي يتحتم علينا مواجهتها بالوعى والمعرفة .

الدار المصرية اللبنانية

**مشاهير الكتّاب العرب
للناشئة والشباب**

أحمد محمد عبد الحليم

مدرس

دكتور أحمد محمد عبد الحليم

الدار المصرية اللبنانية

كلمة وإهداء

هذه قراءة في حياة وأدب المازنى ، وحياة المازنى هي أدبه ، ومن ثم فقولنا إن هذا الكتاب هو قراءة في أدب المازنى لا يدل إلا على أنه قراءة في حياة المازنى وفي أدبه في الوقت نفسه .

وهذه القراءة لها أطراف أربعة :

أولها : المازنى نفسه ، فهو الكاتب ، وهو المبدع ، وهو صاحب الحياة ، وصاحب الإبداع . . وإبداعه هو خير ما يتحدث عنه ، ويدل عليه .

وثانيها : بعض من كتبوا عن المازنى ، وتناولوا حياته وإبداعه بالدراسة والعرض والتحليل . . فقد كان لكتاباتهم أثر كبير في توضيح جوانب عديدة من حياته وأدبه ما كانت لتتضح لى لولا ما قرأت هؤلاء .

وثالثها : كاتب هذه السطور الذى عرف المازنى ، وعاش معه حياته كلها ، يقرأ له ، ويقرأ عنه ، بل ويعايش إبداعاته معايشة المحب المفتون .

ورابعها : أنت - قارئى العزيز - الذى سوف تشاركنى قراءة المازنى فى مسيرة حياته أولاً ، وفى عالم نثره ثانياً . . فسوف تقرأ له ، وتقرأ عنه ، وتعيش معه كما عاش كاتب هذه السطور . . وكم كنا نود أن يشمل حديثنا شعره أيضاً لولا ضيق المقام .

وبعد :

فهذه الصفحات مهداة إلى :

هؤلاء الأطراف الأربعة الذين شاركوا فيها ، فبفضلهم جميعاً ظهرت إلى النور . . . ولا أستثنى نفسى من هذا الإهداء ، ولنا فى ذلك أسوة بالمازنى الذى أهدى روايته « إبراهيم الكاتب » إلى نفسه التى لها يحيا ، وفى سبيلها يسعى ، وبها - وحدها - يعنى طائعاً أو كارهها . . !

والى الأستاذ الكبير : سامح كريم ، فهو صاحب الفكرة فى هذه الصفحات ، ولولا تشجيعه ودفعه لى وكلماته الحبيبة ما كان هذا الكتاب ، فلا أقل من أن يسعدنى بقبول إهدائى له .

« أحمد السيد عوضين »

القاهرة فى ١/٨/١٩٩٧م

من رثاء العقاد للمازنى

أخى إبراهيم

أميرُ بلاغةٍ وأميرُ نقدٍ وذو قلمٍ كغصن الروعِ يُهدى
جناه ، كَحَدِّ السهمِ يُردى أديبٌ راضٍ أفذاذَ المعانى
على ألفاظها زلْداً لنَدِّ له لبٌّ يترجم كلَّ لبٍّ
وينقلُّ عنه ما يُخفى ويبدى ملئُ القلبِ من ثَقَّةٍ وحبٍّ
برىء الصدرِ من حسدٍ وحقْدٍ أراح الحاسدينَ فإنَّ تحدُّوا
له فضلاً ، أعانَ على التحدَّى إذا اقتتلوا على الجدوى رماهمُ
بقول أبى علاءٍ « غيرُ مجْدٍ » وتحسُّبه استراح إلى سباتٍ
ويسبقُ غايةَ اليقظِ المجدِّ فسل عنه شعاب « الضادِ » تعلمُ
مناهلَ فيضه فى كلِّ وِردٍ إذا غمَّ المصَّابُ به فويلُ
لفردٍ خصَّه بمصَّابٍ عدِّ

نمينا شعرنا صنوئين حيناً فكيف رثاؤه بالشعر وحدى
وجاوزنا السهول معاً فماذا ستجدى فى الوعود جهودُ فردٍ
إذا ثقل الشبابُ ، ولى زميلُ فيا بؤسَ المشيبِ المستبدِّ
حياةٌ إنَّ تَطُلَّ فالويلُ ولى وإن تقصَّد فقد أبلغتُ قصدي
سلاماً أيها الدنيا سلاماً لأنَّي أحبُّ لى لو عاش بعدى

الفصل الأول المازنى وميرة حياته

حياة عريضة :

كانت حياة المازنى حياة عريضة ، وإن كانت بحساب السنين حياة قصيرة . . ولد المازنى - (إبراهيم محمد عبد القادر المازنى) فى التاسع من شهر أغسطس من سنة تسع وثمانين بعد الألف والثمانمائة ، (وإن كانت هناك مقولات عديدة بأن ميلاده كان فى عام ١٨٩٠ م) - وأياً ما كان التاريخ الصحيح لمولده ، فهو قد ولد فى ذات التاريخ ، أو فى تاريخ مقارب لتاريخ مولد عملاقين كبيرين آخرين ، هما : طه حسين ، وعباس محمود العقاد . . وإذا كان كل من ثلاثتهم قد ولد فى موضع بعيد عن الآخرين ، فإن الحياة جمعت بين ثلاثتهم فى القاهرة ، ليكونوا على رأس بناء النهضة ، وأعلام الفكر ، ورواد التنوير فى مصر الحديثة ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا على اتفاق وتوافق فى مشاربهم وأفكارهم ، واتجاهاتهم ، بل إن الواقع يؤكد أن كلاً منهم كانت له حياته الفكرية المتميزة ، واتجاهاته التى يتفرد بها . بل وكثيراً ما كانت تثور بينهم معارك عديدة أدبية حيناً ، وسياسية أحياناً أخرى ، إلا أنه ليس من شك فى أن ثلاثتهم كانوا ممن أسهموا إسهامات مباشرة - وأصيلة - فيها وصلنا إليه من مكانة نود أن نقفز منها لنلحق بركب العالم فى القرن الحادى والعشرين .

وعلى ذلك فقد ولد المازنى مع مطلع العقد الأخير من القرن الماضى ، وشهد مولد القرن العشرين وهو فى العاشرة من عمره ، وقبل أن ينتصف هذا القرن كان وداع المازنى لهذا العالم فى العاشر من أغسطس من سنة تسع وأربعين بعد الألف والتسعمائة . . أى أن وجوده بيننا لم يكمل ستين عامًا - أو أكملها بالكاد - ليودعنا ، ويترك لنا دنيانا ، وكأننى به يردّد كما كان يردد دائماً : « باطل الأباطيل ، الكل باطل ، وقبض الريح . . ! » .

ونودّ أن نعرض فيما يلى لمسيرة حياة ذلك العَلم البارز من أعلام النهضة العربية فى سطور ، وإن كانت موجزة إلا أنها تحرص على أن تغطى تلك الحياة العريضة بما تضمنته من جهود وتجارب لا تزال تُؤثّر أكلها كل حين .

طفولة خالدة :

لم يتحدث كاتب عن طفولته مثلما تحدث المازنى ، فأنت تجد هذا الحديث يتردد فى الكثير من كتاباته ، ففى (صندوق الدنيا) ، وفى (قصة حياة) ، وفى الكثير من الفصول الأخرى نجد الحديث عن تلك الطفولة مفصلاً ومُطوّلاً . . بل إن قصته (عودٌ على بدء) ، وإن كانت لا تدور حول حياة الكاتب ، فإنها ترسم صورة - فيها فكاهة وطرافة - لارتداد رجل مكتمل الرجولة إلى مرحلة الطفولة . . بما قد يوحى بأن طفولة المازنى ظلت تشغل فكره وإبداعه طوال حياته .

ومن هنا كان اهتمام من كتبوا عن المازنى بطفولته اهتماماً يتناسب مع أهمية تلك الطفولة ، التى يرى الأستاذ العقاد أن ملامح وسمات هذه الطفولة قد لازمت المازنى طوال حياته . وقد تحدث الأستاذ العقاد عن هذه الطفولة أكثر من مرة ، ومن ذلك ما ذكره فى تقديمه لكتاب الدكتور

(نعمات أحمد فؤاد) عن المازنى ، حيث كتب يقول (١) :

« إن الآية التى تبدو فى جانب واحد من الشخصية المازنية أنه كان خليقاً بالمزيد من التوكيد والإسهاب ، وهو جانب الخصلة العبقريّة التى قيل عنها إنها طفولة خالدة . ففى هذه الخصلة التى أخذ المازنى بالقسط الكبير منها تفسير ، بل تفسيرات جمّة للكثير من خلائقه وأطوارها التى فهمت على وجهها ، وأعوزها التفسير المفصّل فى هذا المقام . »

ويعود فيفصّل هذا الرأى فيقول :

« فالطفولة الخالدة تفسر لنا عادة الانتحال دون ذكر المصادر ، فإن الأعمال بالنيات حق لا يصدق على شىء كما يصدق على نية المازنى وهو يتحل الشعر ، ولا يعزوه إلى أصحابه . . والطفولة الخالدة تفسر لنا قلة الجلد على الجدّ الصارم . . وهى كذلك تفسر لنا ضيقه بالفلسفة والمباحث العريضة ، وسخريته بخلود الأدب . . وكل خصيصة مازنية نتفهمها دون أن نعرضها على هذه الخصلة ، فإنها ستظل بحاجة إلى الجلاء والإيضاح . »

وقد أغرى ذلك أحد الباحثين المنصفين ، فأنشأ كتاباً بأكمله عن هذه الناحية فى أدب المازنى ، وثمار ومظاهر ورموز هذه الطفولة فى إبداعه . . ذلكم هو الدكتور مصطفى ناصف فى كتابه المتميز : (رمز الطفل : دراسة فى أدب المازنى) (٢) .

(١) د. نعمات أحمد فؤاد : إبراهيم عبد القادر المازنى - سلسلة أعلام العرب - الهيئة العامة للكتاب - المقدمة بقلم : عباس محمود العقاد - ص ١٠ ، ١١ .

(٢) د. مصطفى ناصف : رمز الطفل : دراسة فى أدب المازنى - ١٩٦٥م - الدار القومية للطباعة والنشر . . وقد عرضنا من قبل لهذه الدراسة القيمة بالبحث والتحليل فى كتابنا : فى عالم المازنى ، الصادر عن سلسلة كتاب الثقافة الجديدة التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة - العدد ٢٦ - يوليو ١٩٩٤م - ص ١٦٩ : ١٨٤ .

ومن هنا ، فإن هذه المرحلة من حياة المازنى جديرة بالوقوف عندها ، والاتفات إليها ، وسيكون مرجعنا في ذلك ما ذكره المازنى نفسه عنها .

وأول ما نشير إليه - وإن لم يكن أول ما كتبه في هذا الصدد - كتابه : قصة حياة . ففى تقديمه لذلك الكتاب يقول : « هذه ليست قصة حياتى ، وإن كان فيها كثير من حوادثها ، والأولى أن تُعدَّ قصة حياة » (١) .

وكأنى به يريد أن يقول : ليست هذه قصة حياتى مكتملة ، فما أردت إلى هذا ، وإنما كل غايتى ومرادى أن أروى أبرز وأهم حوادثها ، أما ما أغفلته منها - فى هذه الصفحات - فتجدونه فى كتاباتى الأخرى التى سوِّدَتْ بها المئات - بل الآلاف - من الصحائف ، فارجعوا إليها - إن كان يهكم ذلك .

يقول المازنى فى مقدمة كتابه (قصة حياة) : « فتحت عينيَّ أول ما فتحتها فى حدائتى على دنيا تنتزع الكُرَّةَ من يد الطفل وتقول له : أظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشدَّ ما ركبك الوهم يا صاحبى ! لا كُرَّةَ ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع فى ظلها إلى الكهولة دفعةً واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » (٢) .

ثم يذكر بعد ذلك : « فعرفت فى التاسعة من عمرى - وهى سن غضة جداً - أن هناك واجبات تؤدَّى لذاتها ، وحقوقاً تُقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغرى أن شأنى غير شأن الناس ، وأنى

(١) المازنى - قصة حياة - والطبعة التى نشير إليها هى طبعة « دار الشعب » التى ظهرت بعد وفاته ، والثابت أن الطبعة الأولى لهذا الكتاب ظهرت فى عام بعد أن نشرت من قبل فصولاً فى بعض الصحف ، كما أنها نشرت مرة أخرى فصولاً فى مجلة آخر ساعة بعد وفاة المازنى فى عام ١٩٤٩ م .

(٢) المازنى - قصة حياة - المرجع المذكور - ص ٤ ، ٥ .

فقير ، وإن كُنْتُ مستورَ الحال ، ولكن الستر لا ينفى الشعور بالفقر ، وغضاضته ومضضه ، فأرهف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبرة على قلبى فيحزّه ويقطعه ، فنزعت شيئاً فشيئاً إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعى نفقة ، وتكون فيه كلفة » .

« وقوى هذا الميل فى نفسى وعمقه أنى بعد الذى سمعته ووعيته من أمى قصدت إلى أخى الأكبر - وهو من غير أمى - وسألته عن مال أبينا : أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعة ، وأنا أنظر إليه حاد العين ، إنه هو الذى أضاعه ، وجرَّ علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوّضنا خيراً مما أتلّف . فأحسستُ أنى شبيّت جدّاً عن الطفولة فى تلك اللحظة ! » (١) .

ولعل ذلك يوجب علينا أن نرتدّ لترسم الصورة التى رسمها المازنى - بقلمه - لأبويه ، وأثر كلٍّ منهما عليه ، ومكانته لديه .

صورتان يرسمهما المازنى لأبيه وأمه :

يقول المازنى عن أبيه (٢) : « كان أبى مشغولاً عنا بزوجة جديدة ، وكان عمله يضطره إلى السفر إلى إستنبول ، فكان يقضى هناك ما شاء الله أن يقضى - شهوراً أو عاماً أو قرابة ذلك - ثم يعود ومعه زوجته ، وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى يحمل معه الزوجة ويسرّحها هناك ، ويحيى بغيرها ، وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن ، وحسن التدبير ، والنظافة ، والطاعة ، والأدب . فإن يكن ذاك

(١) المازنى - قصة حياة - المرجع المذكور - ص ٤ ، ٥ .

(٢) المرجع المذكور - ص ١٤ وما بعدها .

فما ورثت عنه إلا نقيضه ، ولست أعنى - كما لا أحتاج أن أقول - أنى أحب
الوساخة ، وسوء التدبير وقلة الأدب - والعياذ بالله - وإنما أعنى أن اللون
الأسمر آثر عندى ، وأحبُّ لى ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء
والأخرى سمراء ، وكانتا من الحُسن فى منزلة واحدة ، فالسمراء عندى أجمل
وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمى ولنفسى ،
فإنى أسمر - أو إلى السمرة أقرب - ولعلى أكره أن تزهى على واحدة بياض
جلدها ، ولكن هذا شطط ، فلأرجع إلى ما كنت فيه .

ولعل الصورة لا تكتمل إلا إذا مضينا نستعيد بعض ما كتبه المازنى عن
أمه . . . وفى الحقيقة أنه كتب عن أمه الكثير من الصفحات ، ولكننا
نكتفى بهذه الأسطر ، ننقلها عن مقال له عنوانه : (أمى) (١) :

« لا أعرف الأمهات كيف يَكُنَّ ، ولكنى أعرف أمى كيف كانت ،
وأجمل التعريف بها وأوجز الوصف فأقول : إنها كانت (رجلاً) ، وأحسب
أن النساء لا يرضيهن ثناء كهذا يسلبهن أنوثتهن ، وإن سرهن ما فيه من
معنى الإكبار ، ولكن أمى لم يكن بها بال تجعله إلى شىء من هذا ، فقد
اضطرت أن تحقق أنوثتها فى سن يبدأ فيها النساء - أو معظمهن - يعرفن
معنى الأنوثة الكاملة ، فقد مات أبى وهى فى الثلاثين من عمرها ، وأذاقها
فى حياته ما سؤد الدنيا فى عينيها ، وأنساها أنها امرأة كالنساء ، وكان أبى
- رحمه الله - مزواجاً ، وكان حبه للتركيات وافتتانه بهن عجيبين ، ومن فرط
حبه لهن كرهتهن أنا ، وكان يذهب كل بضعة أعوام إلى الأستانة فيبقى فيها
ما شاء الله أن يبقى ، ثم يعود بزوجة من هناك يعايشها سنوات ثم يملأها
ويشتمى غيرها ، فيسرحها بإحسان ويردها ويحىء بغيرها ، وهكذا .

(١) ميبيل الحيلة - الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر - ص ١٧ .

وتركنا أبى ذوى مال ، فأكله أخى الأكبر - أعنى أنه أنفق باليمين
وبالشمال حتى أتى عليه - فلولا لطف الله لتسولنا ، أو على الأقل لما أمكن
أن نتعلم ، ولكان المازنى الآن - على الأرجح - نجاراً غير حاذق ، أو شيئاً
من هذا القبيل ، لكن أمى كانت حازمة مدبرة ، فوسعها بالقليل الذى
أسعفها به حسن الحظ أن تربينا وتقينا المعاطب .

ولست أذم أبى أو أنتقصه ، وما يسعنى أن أفعل ذلك وقد كانت أمى
تثنى عليه ، ولا تنى تذكره بالخير ، ولم تنقطع قط عن زيارة قبره فى اثنتين
وثلاثين سنة عاشتها بعده .

وكانت أمى - على صغر سنها - زعيمة الأسرة . وكان أهلى جميعاً يلجأون
إليها يطلبون رأيها فيما يعرض لهم ، وفصلها فيما بينهم من المشاكل . وقد
كان موت أبى وأنا فى التاسعة من عمرى ، وكنت - ومازلت مع الأسف -
أكبر ابنيها ، فصارت تعاملنى على أنى رب الأسرة وسيد البيت ، وتعودنى
احترام النفس ، والتزام ما يقتضيه مقامى فى البيت وتستوجبه زعامتى
للأسرة ، وتنبهنى إلى (مسئولياتى) وإلى التبعات التى يحملها (رجل) مثلى .
وكانت حاذقة كيّسة فى سلوكها ، فلا نهر ولا زجر ، ولا أوامر ثقيلة ، ولا
نواهى بغیضة ، ولا شطط أو إسراف ، ولا تقصير أو تفريط ، ولا إشعار
بأن لحرىتى حدوداً ضيقة غير معقولة أو إسراف ، ولا تقصير أو تفريط ، ولا
إشعار بأن لحرىتى حدوداً ضيقة غير معقولة أو محتملة ، وإن كانت الرقابة
على هذا دقيقة وافية .

وكانت - عليها رحمة الله - تتوخى أن تعفينى من المنغصات ، وتتجنب أن
تحملنى الهموم فتستقل بها دونى ، وتتحرى ما يدخل على نفسى السرور ،
ويشيع فيها الغبطة والرضا ، ويفيض على البيت الإيناس والبهجة . وكانت
ذاكرتها قوية ، فكانت إذا جلست للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف

وكانها تحياها من جديد ، فلا يغيب عنها حرف ، ولا يفوتها لون . وكانت - لقوة ذاكرتها - سجلاً عاماً للأهل والصواحب ، فمن نسى شيئاً فما عليه إلا أن يلجأ إليها . وكانت صديقاتها يستودعنها حسابهن ، وكثيراً ما كان يحدث أن تحيي الواحدة منهن فتقول لها : إن فلانة الدلالة تزعم أن على لها مبلغ كذا ، فما هي الحقيقة ؟ فتخبرها الحقيقة ، فتقوم عنها ويكون هذا هو القول الفصل .

وكانت قوية الشكيمة ، فلا رأى إلا رأيها في الأسرة كلها ، وإن كانت صغرى أخواتها ، وكثيراً ما كانت نفسى تحدثنى أن أنازعها السيادة ، ولكنى كنت لا أكاد أهمُّ بذلك حتى أرتد ، وكان يكفى أن ترمى لى نظرة وتقول : استع يا ولد ، فيتحلل العزم ، وأهوى على راحتها بالثلثات . وكانت تكتفى بالنظرة الأولى إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة ، فكنا نتفاهم بالعيون ، والذين حولنا غافلون لا يفتنون إلى شيء .

تلك هي كلمات المازنى عن أبيه ، ثم عن أمه . آثرنا نقلها عنه ، لأنها أوفى في التعبير ، وأصدق في الحديث ، وإذا كنا نكتفى بها في الوقت الحالى للتعبير عن بعض ملامح المازنى ، فإن رسم الصورة الكاملة لتلك الملامح قد يضطرننا إلى معاودة الرجوع إلى ما كتبه عن أبويه - وبصفة خاصة عن أمه - فما نعرف كاتباً اختصَّ أمه بمثل ما اختصها به المازنى في العديد من كتاباته ، حتى ليتمكن القول بأنه ما انقطع عن الحديث عنها في كل ما كتب .

ضاع المال وبقي الستر :

مات والده ، وهو في سن صغيرة ، لم يجاوز التاسعة من عمره ، وكان أبوه ذا مال وفير ، يكفى كل من خلف وراءه ممن يعول ، إلا أن المال كله وُضِعَ في يد أخيه الأكبر الذى أنفقه باليمين وبالشمال حتى أتى عليه . . أضاعه إلا القليل . . ولم يكن ذلك بالأمر غير المتوقع ، فقد وصفه المازنى

بقوله (١) : « وكان أبى في وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية في المدرسة الخديوية ، فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو الذى زهد أبى في التعليم ، فنفض يده منه ، واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء أخى في هذه المدرسة ، فقد طرده ، فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية - لا أذكر - وكان يبيت فيها ، فصار يغرى زملاءه بالخروج في فحمة الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ، ويتخذ منها هو وزملاؤه حبلاً يتعلقون به ويتدلون ، وبه يصعدون أيضاً حين يعودون مع الديكة . وظهر الأمر ، فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ، وتماسكا ، وتضارباً ، فانكسرت رجل الضابط ، ولا آخر لحادث هذا الأخ . وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعاً بالعبث » .

وكان تصرف الأخ الأكبر في مال الأب على هذا النحو ، قد آذى الصبي وأضرعه ، حتى لقد رأى أن يتجه إلى أخيه يسأله عن مال أبيه : أين وكيف ذهب ؟ ولكن السؤال لم يسفر عن شيء أكثر من قول الأخ وهو يكاد يشرق بدمعة أنه هو الذى أضاعه ، وجرَّ على الأسرة تلك المحنة ، وإن كان يرجو أن يعرضهم خيراً مما أتلف !

في تلك اللحظة - كما يقول المازنى (٢) : « أحسست أنى شبيبتُ جدّاً عن الطفولة » . . ومن هنا ندرك مدى ما خلّقه ذلك في نفسه من أثر يصفه بقوله : « فتحت عيني أول ما فتحتها في حدائتى على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل ، وتقول له : أتظن نفسك طفلاً له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبي ! لا كرة ولا لعب ، وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة

(١) قصة حياة - المرجع المذكور - ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) المرجع المذكور - ص ٤ .

دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثبًا أيضًا . . » (١).

« فعرفت في التاسعة من عمري - وهي سن غضة جدًا - أن هناك واجبات تؤدي لذاتها ، وحقوقًا تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة . وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس ، وأنى فقير ، وإن كنت مستور الحال ، ولكن الستر لا ينفى الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه ، فأرهدف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قلبى فيحزّه ، ويقطّعه ، ففرزعت شيئًا فشيئًا إلى الانقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون مما يستدعى نفقة ، وفيه كلفة » (٢).

« وترك هذا كله أثرًا فى نفسى ، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالى أو يقاربه ، وصرت أشعر أنى غريب إذا ألفت بى المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء ، أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف ، فكنت أنفر أشدّ النفور من مجالستهم أو مخالطتهم ، ويكبر فى وهمى أنهم لا يخفى عليهم أنى نشأت فقيرًا ، وأنى امتحنت فى صباى أقصى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا محاولة مقصودة يشقون لى بها جفونى ، ويطلعونى على ما بينى وبينهم من بون » (٣).

ومع ذلك ، وبفضل حزم الأم ، وقوة شكيمتها ، وصدق فراستها ، فقد استطاعت أن تسير بقافلتها الصغيرة دون تعثر ، حتى وصلت بها إلى خير ما ترجو ، متغلبة على كل ما لقيت من صعاب . . حتى ذلك الأثر الذى تتركه الحاجة فى النفس من ضيق بالحياة ، أو سوء ظن بها استطاعت أن تمحوه ،

(١) المرجع المذكور - ص ٣ .

(٢) المرجع المذكور - ص ٤ .

(٣) المرجع المذكور - ص ٥ .

فيحلّ الرضا عن الحياة محل سواه من المشاعر السوداء فى نفس المازنى . . ولكنه ليس رضا المستسلم ، بل رضا من وصل إلى الغاية ، وأوفى على الغرض ، فهو يقول (١): « ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان جففتا عبراتى ، وعلمتنى أن أبكى بقلبى دون عيني ، وأن أستر ضعفى عن الناس ، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرءون فيها آيات الرضا والاستبشار والثقة ، والفضل فى ذلك لأمى » .

« والعبرة بالخواتيم ، وقد انتقلت بى الحال بعد طول الضنك إلى سعة مرضية وخير كثير ، فالحمد لله على ما أنعم ويَسّر » .

« ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ، ووجدت أن التسامح الذى يبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة خاطر ، وسكينة النفس ، من تلك المرارة القديمة التى كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان ، وألفيتنى أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسرّ من جوانب الحياة ، وأن أبرز هذه الجوانب الوضيئة للناس ، وأشركهم معى فى نعيمى بها ، وأحاول أن أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس ، فتضىء لهم وجوه العيش ، وتمنحهم الدفء ، وتشيع الابتسام والجدل فى وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم من أزهار الحياة ريحانًا وآسًا وورجسًا ، وأن أجمل ما كان يبدو لى ولهم دميًا ، وأزّين العاطل ، وأرقرق الماء فى حواشى النسيم ليعود أندى على القلب ، وأثلج للصدر » .

على أنه قد يكون لنا أن نضيف أن هذا التحول لم يأت ، كما يذكر ، نتيجة لتحسن الأحوال ، ولكنه تحول نابع من الطبيعة السمحة ، والنفس الراضية ، وأما ما كان من ضيق وسوء ظن فهو عارض ، ما إن زالت أسبابه

(١) المرجع المذكور - ص ٦ ، ٧ .

حتى انكشف الغطاء عن الحقيقة الوضيئة لإنسان لا تشغله عوارض الحياة عن أرفع ما في الحياة من خير وحب وجمال .

غير أن الوصول إلى تلك الحال الهادئة الراضية المرضية كانت دونه متاعب وعثرات لعلنا أن نوفق فيما يلي أن نبرز بعض صورها .

بيت .. وطفولة .. وشقاوة :

يقول المازني^(١) : « نشأت في بيت صارم التقاليد ، في ساحته الواسعة مُصَلَّى وميضأة ، وعلى جانبي مدخله عُرف لإقامة الأتباع ، والتلاميذ ، والمريدين ، وكانت آخر هذه الحجرات - مما يلي الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت تتخذ اصطبلًا لمن له بغلة أو فرس أو خمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المتفرقون من هؤلاء الأتباع في المصلى ، ويتلون (الورد) وهم قعود ، ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام ، فالخولة ، وفي الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى (الورد) مرة أخرى ، وتتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل (القول النابت) (والخبز) .

« وكان يروقني هذا ويستولى على خيالي ، فأشاركهم فيه ، وأتلو (الورد) الذي يتلونه ، وأصلى على النبي كما أراهم يصلون ، وأهز رأسي وجسفي في الصف عند (الذكر) كما يفعلون ، وأحاول - عبثًا - أن أجعل صوتي غليظًا عميقًا ، وأرافقهم في الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبي فأزوره ، ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راضٍ ، والنفس ساكنة » .

« ولم يكن هذا بيت أبي ، وإنما كان بيتًا يسع من يشاء من الأسرة أن يذهب إليه ، ويقيم فيه ، فقد كان واسعًا كبيرًا ، فلما مات أبي وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصادًا في النفقة ، وعَزَّ على ذلك في أول

(١) المرجع المذكور - ص ١ .

الأمر ، فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستاني ، ومن العجيب أني أذكر مدخل البيت وساحته الرحيبة ، وحديقته والنافورة ، والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب أبي ومكاتب الوكيل ومساعديه ، ولكن ما عدا ذلك بهتت صورته . وأذكر أني كنت أدخل على أبي في مكتبه وعنده أصحاب القضايا ، فأقف إلى جانبه وهو مكبٌّ على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئًا ولا أتحرك ، حتى يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض : أبويا .. أبويا .. هات قرش . فيضع يده ثم يخرجها بما تخرج به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلل بما أُعْطِيتِهِ ، فألقى أخى الأصغر ينتظر عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد بائع (الدندمة) .. فندفع إليه ما معنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله ، ثم نميل على دكان مجاور لبيتنا فنشتري كرات ولبيا وما إلى ذلك .. نبدد الفلوس والسلام » .

« ومن الصور التي لا تزال ماثلة أمام عيني أن جدِّي دخل على أبي في مكتبة يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبي واقفًا ، وأفسح الزباين له ليقعد ، ولكنه لم يفعل ، والتفت إلى أبي وطلب منه شيئًا ، فاستمهله هذا ، فما كان من الجدِّ إلا أن رفع (العكاز) وأهوى به على كتف أبي فتأوّه واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدِّي غاضبًا ساخطًا يلعن العقوق ، وعاد إلى كرسيه في مدخل البيت » .

ويكمل المازني ملامح الطفولة وهو يرسم هذه الصورة^(١) :

« وليست أذكر أني مِمِّتُ مرةً باللعب إلا زجرني عنه واحد من الكبار ، أو مددت يدي إلى شيء إلا نُهييت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون

(١) إبراهيم عبد القادر المازني - صندوق الدنيا - طبعة دار الشروق - ١٩٨٠م - فصل تحت عنوان : الطفولة الغريبة - ص ٩٦ : ١٠٣ .

المقضى على به ، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم ! فأنا إذا لعبت (شقي)، وإذا سكنت فلا شك أنى مريض ! وكان ملجئى الوحيد أبى ، هو وحده الذى كان يبدو أنه يفهم ! وقلما كنت أجالسه ، لأنه رجل ، والرجل فى ذلك العصر ، مكانه بين الرجال ، لا بين الأطفال والنساء ، حتى الأكل كان يتناوله وحده ، أو مع ضيوفه فى (منظرة) الرجال ، حتى القهوة تُصنع وتُرسل له ، فهو فى منزله وحده ، وكل من فى البيت يخدمه ، حتى أمى ، بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائماً ، فالكلام همس ، والسير على أطراف الأصابع ، والأطفال يُحملون إلى مكان قصى من تلك الدور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم . ثم يفتح عينيه ، ويتشاءب فيقلب السكون جلبه . هذه تحىء بالطشت والإبريق للوضوء ، وهذه تعد الشاي ، وتلك تهىء الطعام ، وكأنها يتعمد كل إنسان أن يسمعه صوته ، ويثبت له أنه يتحرك فى خدمته ، فالأصوات عالية ، والنداءات متتابعة ، و (القباقيب) ملبوسة ، والأرجل تدب ، ويكون الشيء المطلوب تحت أنف الطالب ، فيقطع المكان ذاهباً وآيباً عشر مرات قبل أن يمد يده إليه ، ويصيح وينادى ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من فى البيت على اختفائه ، ويتوعد ، وينذر حتى إذا ظهر - وهو أدنى شيء منهم جميعاً - انطلق طالبه المتعامى عنه يصف الإهمال والعمى بما يفتح الله به عليه . ثم تُقص هذه الحكاية بتفصيل وافٍ شافٍ لأبى ، وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء عليه ، والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت ، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها، والمتبرم بهذه المتعبات التى تحفل بها ساعات الليل والنهار. . .»

« نعم ، كان المنزل جحيم الأطفال ، فالطفل مُطالب بأن يكون له عقل الكبار ، واتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ، ولا يُعامل معاملةاتهم . وكل شيء يصدر عنه معيب وخطأ ، فاللعب عيب ، والصمت عيب ، والتهويم فى المجلس عيب ، والأرق عيب ، والاستفهام عيب ، ، ولا شيء فيما يرى الطفل محمود مشكور . »

بقى أن نقول : إن المازنى وُلد (لأب حضر العلم فى الأزهر) ، وعمل فى تدريس اللغة العربية فترة ، ثم عمل بالمحاماة الشرعية حتى وفاته ، وقد خلفه فيها ابنه الأكبر : محمد خيرى ، وهو الأخ الأكبر الذى تحدث عنه كاتبنا كثيراً ، وكان له من أمه أخ أصغر ، هو : أحمد المازنى . . وكان البيت الذى نشأ فيه يومئذ قريباً من (عين الصيرة) وعلى بضعة أمتار من الطريق الممهّد المرصوف الذى يخترق الصحراء بين الإمام ومسجد عمرو^(١)

فى الكتاب .. ثم المدارس :

أدخل « المازنى » الكتاب ، لكن مكثه لم يطل فيه ، لأن أمه أصرت على المدرسة . . فأخرجته من الكتاب ، وبعثت به إلى المدرسة . . التى يصفها بقوله^(٢) :

« أخرجتنى أمى من الكتاب وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيداً لإدخالى مدرسة حكومية ، ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها (فصلاً) واحداً للصبيان ، وكانت صاحبة المدرسة (خيطة) ، ومن هنا كانت معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها ، وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ، ولكنه غليظ الكبد . وكل ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو

(١) د. نعمات أحمد فؤاد - المرجع سالف الذكر - ص ٥٠ ، ٥٦ .

(٢) المازنى - قصة حياة - ص ١٦ وما بعدها .

نختلط بهن ، بل كنا نوضع في حجرة ضيقة ، توصلد علينا بالمفتاح ، فكانت هذه الحجرة هي المكان الذي نتلقى فيه الدروس ، وهي الساحة التي نلعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً . وكنا إذا تركنا المعلم نرحل عن الأدرج عن موضعها لنفسح مكاناً لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نُجرى (البلي) على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا زجاج النوافذ ، وغرم أبائنا ثمنه . . .

« وكان مساعد المدير رجلاً فظاً - كما قلت - إذا أخطأنا أو قصّرنا يأمر الواحد منا أن يُجْلَع الطربوش ، ثم يضربه على رأسه العاري بالخيزرانة . وكنا في الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً على رءوسنا ، فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه ، وأشبعناه ركلاً وركلاً ، ومزقنا له سترته الطويلة - الإستانبولين - وخطفنا العصا من يده ، وأذقناه وقعها على أصابع يديه ، وعلى ركبتيه ، ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا ، وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملعين » .

« وبعد نحو أسبوع عرف أبي ما كان ، فلم يقل شيئاً ، وإنما ألحقنا بمدرسة أخرى في شارع محمد علي ، على مقربة من القلعة ، وتسمى مدرسة (القرشوللي) . . . وفي هذه المدرسة كان الضابط - وهو تركي - يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ، ولكن السوط كان في يده ، وكان يكفي أن يلمسنا بطرفه . وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام ، واجتازت امتحانها ، ولكن صاحبها أبى أن ينقلني إلى (فصل) أرقى ، لأنني صغير السن ، فبقيت في السنة الأولى عاماً آخر بلا موجب سوى حذقة هذا المدير أو الناظر الذي استئصال جسمي ، واستصغر سني ، واستكثر عليّ السنة الثانية من أجل ذلك » .

وانتظم (كاتبنا) في تعليمه حتى نال الشهادة الابتدائية . . ولم تكن تلك

الشهادة بالأمر الهين في ذلك الوقت ، وفي ذلك يقول المازني نفسه (١) :

« يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت : إن تلميذاً كان معنا في المدرسة نال الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية . وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى (الأشياء) ، وهي عبارة عن معارف عامة ، وكان تدريسها يومئذٍ باللغة الإنجليزية » .

ويقص علينا (كاتبنا) ما حدث على أثر حصوله على تلك الشهادة فيقول (٢) : « وأخذتُ الشهادة الابتدائية ، فقالت أمي : تذهب إلى المدرسة الخديوية ، وتقدم إليها طلب التحاق بها . ولكن أخى - وقريب لي - جاء ليقتنعاً أمي بأن تقبل توظيفي ، فاستغربت ، وقالت : ولكنه طفل . قال قريبي : إن نفقات التعليم الثانوي كبيرة ، فمن أين تجيئين بها ؟ . وعزز أخى رأيه . وألح الاثنان عليها إلحاحاً شديداً ، وهي تأبى وتقول إنها لا ترضى بذلك ، وإن ابنها يجب أن يتعلم ، وإن أوان التوظيف وكسب الرزق لا يزال بعيداً ، فأغلظ أخى لها في الكلام ، وعنف معها قريبي ، فطردتها وأمضت مشيئتها ، وأدخلتني المدرسة . وقد بقيا زمناً غير قصير لا يجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما ، وتوصيني ألا أقطعهما ، وتقول إنه خلاف أدّى إلى جفوة بينهما وبينهما ، وقد فعلت ما تريد ، وقواها الله عليه ، فلا مسوغ لبقاء النبوة ، ولا موجب لها على كل حال فيما بيني أنا وبينهما ، وهي لا تضمر لهما بغضاً ، ولكنها تخاف لبعيها ، ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لي أن يبقيا بعيدين حتى أفرغ من التعليم » .

ونصل بعد ذلك إلى مرحلتى الدراسيتين : الثانوية والعالية . . فنجد أنه

(١) المرجع المذكور - ص ٦٣ .

(٢) المرجع المذكور - ص ٦١ .

قد مضى فيهما غير متعثر ، بل انطلق يجتازهما سنة فسنة بنجاح وتوفيق . ولم يقل لنا (كاتبنا) إنه كان متفوقاً على زملائه ، أو إنه كان من (الأوائل) دائماً . . بل مضى يصف هاتين المرحلتين بأسلوبه الذى يجمع إلى حسن العرض ، ولطافة المأخذ ، عمق النظرة ، وصدق التعبير ، وإن كان يميل إلى المبالغة - فى بعض الأحيان - فى كل ما يُظهرُ ضعفه ، وقصوره . .

ولنصحبه وهو يتحدث عن مرحلة الدراسة الثانوية ، حيث يقول عنها فى فصل يحمل عنوان : ذكريات مدرسية . . مقدماً لحديثه بقوله (١) :

« سأكتفى بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التى تغنى عن التفاصيل ، ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يُستفاد من مقابلة عَهْدٍ بعهد ، ومواجهة ماضٍ بحاضر . . فمثلاً يمكن أن تتصوروا . . »

ثم يمضى يتحدث عن دراسته بالمرحلة الثانوية فيقول (٢) :

« كان التعليم الثانوى انتقالاً بأدق المعانى ، فقد صار كل ما فى المدرسة إنجليزياً - الناظر والمدرسون والتعليم - ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح فى الامتحانات ، وأكبر ظننى أنهم كانوا يترفقون بنا ، ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركونا ننجح على سبيل الاستثناء .

وهذه بالطبع مبالغة من (كاتبنا) - كشأنه دائماً فى إظهار ضعفه - وما نشك فى أنه إنما كان يجتاز امتحاناته بنجاح عن مقدرة وجدارة ، ويكفى أن نشير إلى مدى إتقانه للغتين الإنجليزية والعربية إتقاناً مذهلاً لنفى عنه ما يصف به نفسه من ضعف . . !!

(١) المرجع المذكور - ص ٦٣ .

(٢) المرجع المذكور - ص ٦٣ .

ونصل به إلى مدرسة المعلمين العليا . . ولكن قبل أن نجتاز معه عتبات تلك المدرسة نجد أنه مما يكمل الصورة ، ويبرز معالمها أن نعرف معه - ومنه - كيف مضت خطاه إليها ، فى حين كان يؤهل نفسه ويعدها لدراسة أخرى سواها . . كأن يكون طبيباً ماهراً ، أو محامياً بارعاً ، ولنستمع إلى كلماته التى يسوقها فى بساطة محبة ، ومبالغة مشوقة (١) .

« أدركتني حرفة التعليم كما أدركتني حرفة الأدب ، فبلاتنى عظيم ، ومصيبتى كبيرة ، وخطبى أذهى من خطب ابن المعتز الذى لم تكن فيه - مثلى - لو ولا ليت ، وأنا أحق منه بما قيل فيه ، وأحوج إلى إنصاف الشعراء من ظلم الحياة ، وكنت قبل أن أدخل مدرسة المعلمين العليا - فقد كانت هناك مدرسة أخرى (سفلى) ، أعنى دونها مرتبة - أشتهى أن أكون طبيباً ، لأن الطبيب ليس كمثله أحد ، يقتل الناس ويأخذ كراء يده ، ثم إننى من مازن ، كما لا أحتاج أن أقول ، والطب كأنما هو فى طباعهم ، وكثيرون من أهلى أطباء ، فلا حاجة بى إلى الغرباء حين يوافى الحين ، وقد اشتهر المَوَازِنُ فى جاهليتهم بإتقان الجراحة ، وكان أحب الألعاب إلى أطفالهم أن يخرجوا إلى مخارم الجبال ويتربصوا وراء صخرها ، حتى إذا عبر الطريق عابر ، سالوا عليه ، وحفوا به ، وراحوا ينوشونه بالرماح القصيرة ، ويشكونه بالسيف الصغيرة ويغمزونه فى المواضع الطرية ، فيتوثب ويقفز ويصيح : (أوخ . . آى . .) وهم يقهقهون مسرورين ، ولا يزالون يداعبونه ويجمشونه حتى يفتر عن الحركة المسلية والصياح الممتع ، فيدعونه إلى غيره ممن تقوده إليهم رجلاه .

ولكن الدكتور كيتنج - ناظر مدرسة الطب فى ذلك الوقت - طردنى ورمى لى أوراقى وقذف بى وراءها ، لأن نتن جثة أحدث لى إغماء ، فوعده أن

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى - خيوط العنكبوت - الدار القومية للطباعة والنشر - ص ٢٨٣ : ٢٨٥ -

فصل عنوانه : « فاتحة عهد » .

أسد أنفى ، فhez رأسه ، فتعهدت بأن أرؤض نفسى على حب التتن والعفن ، فلم يلن ، فخرجت بقلب كسير ، وقلت إذا فاتنى الطب فلن تفتوتنى المحاماة ، فإن فى قومى مروءة وطول لسان ، وقديماً كان الموازن أهل لسن ونجدة ، ومضيت إلى مدرسة الحقوق ، فأخذوا أوراقى وقالوا : حُباً وكرامة ، وانقلبت إلى بيتى أنتظر موعد الدخول ، وإذا بالوزارة تزيد أجور التعليم فى هذه المدرسة من خمسة عشر جنيهاً فى العام إلى ثلاثين ، فقلت : يا خبر أسود ! وأسرعت إلى المدرسة فاستعدت أوراقى ، فما كان ذلك يدخل فى مقدورى . وأيقنت أنى ضائع ، وأن التعليم قد سُدَّتْ فى وجهى طريقه ، ويكيت على صدر أمى ، وقلت لها قد ذهب مع الريح كل تعبك فى تعليمى .

ثم فتحت مدرسة المعلمين العليا فدخلتها وأنا أقول إن هذا على كرهى له أهون من هندسة مدرسة الهندسة .

وانتظم فى دراسته فى مدرسة المعلمين العليا ، يدرس اللغة الإنجليزية وآدابها . وما نعتقد إلا أنه كان يأخذ تلك الدراسة بجدية تامة ، تدفعه إلى ذلك أمور عدة ، لعل أهمها رغبته فى إنجاز الدراسة فى مدتها المحددة دون تأخر ، ومنها أيضاً إجادته للغة الإنجليزية ، وتطلعه إلى مزيد من الإجادة لها والتعمق فيها ، باعتبارها أدواته فى الاطلاع على ثقافة الغرب - بصفة عامة - ووسيلته فى دراسة الأدب الإنجليزى - بصفة خاصة - ومنها - كذلك - ما كان سائداً فى ذلك الوقت من أخذ الأمور كلها بجدية تامة ، وبخاصة من أبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا يتطلعون لأدوار القيادة والريادة فى مجتمع جديد .

وقد تحدث (كاتبنا) عن هذه الفترة من حياته كما تحدث عن سواها . فقال يحكى عن ذكرياته عن الشيخ حمزة - وغير ذلك من الذكريات - فقال :

« ولكنه - أى الشيخ حمزة - فى مرة أخرى كاد يُضَيِّع على سنة . وكنت طالباً فى مدرسة المعلمين ، وكانت لجنة الامتحان فى اللغة العربية برياسته ، فقال أحد إخوانى بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار ، ولم تكن ندرس نحواً ولا صرفاً فى المدرسة ، لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب ، فأيقنا بالفشل . وجاء دورى ، فدخلت وأنا واثق من الرسوب ، وجلست أمامه ، وناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون ، فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى : اعلم أن العدوان على الناس فى أموالم ذاهبٌ بآمالهم فى تحصيلها . . إلخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعت ، فسألنى عن العدوان والفعالين عدا واعتدى ، وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التى يكون عليها الفعل (اعتدى) مثل (اعتديا) للماضى المثنى ، و(اعتديا) للأمر ، فسألنى لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر ، فلم أعرف لهذا سبباً ، وقلت : إنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : ولكن لهذا سبباً ، قلت : إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفى ولا داعى للبحث عن سبب مُحْتَلَق . فغضب وظهر هذا على وجهه ، فلم أبال بغضبه ، وحدثت نفسى أنه خير لى وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأى ، وكاد يحدث مالا يُحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش - وكان عضواً فى اللجنة - تدارك الأمر ، فقد نظر فى ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال : العصر وجب يا مولانا . فنهض الشيخ وهو يقول : أى نعم ، وذهب للصلاة ، ونسينى فكان فى هذا نجاتى ، وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتى به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة فى مدرسة المعلمين ، ويكفى أن أقول إنه

كانت لنا في الأسبوع ثمانى ساعات لا نتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة . . وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ، ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جداً .

المازنى مدرسا :

تخرج المازنى فى مدرسة (المعلمين العليا) فى سنة ١٩٠٩ م - أى أنه كان ابن عشرين عاماً - وهى سن صغيرة بالنسبة لمن يصبح - كما أصبح المازنى - مدرساً للترجمة فى مدرسة السعيدية الثانوية . . ولنستمع إليه وهو يتحدث عن أولى تجاربه فى هذا الصدد (١) :

« ومضت الأيام - أعنى الأعوام - وصرتُ معلماً ، وتسلمتُ من الوزارة الشهادة لى بذلك ، ولكنى لم أفرح بها ، لأن ذلك كان بكرهى ، كما صار من لا أذكر اسمه فى رواية لمولير طبيباً على الرغم من أنفه ، فعيّنتنى الوزارة مدرساً للترجمة بالمدرسة السعيدية الثانوية ، وكنت صغير السن ، ولم تكن لى لحية ولا شارب ، فكنت أحلق وجهى بالموسى ثلاث مرات فى اليوم لعل ذلك يعجل بإنبات الشعر ، فقد انتهيتُ أن يكون لى شارب مفتول وخدان كأنهما سقيا عصير البرسيم ، ولكن الموسى لم تُجِدْنى فتيلاً .

ومع ذلك ، فقد كان المازنى (معلماً) ناجحاً ، محبوباً ، ذا مهابة ومكانة بين تلاميذه ، فقد كان له من قوة الشخصية ، ما استعاض به عن قِصَرِ القامة ، وَضَالَّةِ الحجم ، بل ما أغناه عن استعمال الشدة ، أو الالتجاء إلى العقاب . . وهو نفسه يحدثنا عن ذلك فيقول (٢) : « . . وقد صرتُ معلماً

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى - المرجع سالف الذكر - ص ٢٨٥ : ٢٨٨ .

(٢) إبراهيم عبد القادر المازنى - قصة حياة - المرجع المذكور - ص ٦٧ وما بعدها .

بعد ذلك ، وظللتُ أشتغل بالتعليم عَشْرَ سنين ، خمساً منها فى الوزارة وخمساً فى المدارس الحرة ، ولم يقصُر التلاميذ فى محاولة المعاكسة ، ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية فى الشقاوة ، وكانت طريقتى أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه ، فلا أشغل به نفسى والتلاميذ ، مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه فى ذلك ، فلا أعدُّ هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله . وقد حدث يوماً وأنا مدرس فى المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فالفيتُ على مكتبى كل أدوات الرياضة مرصوفة على نحو لا شك أنه مُتَعَمَد ، وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكتهم أنى أعد نفسى جاهلاً بها ، حاراً فى علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يُعابثونى عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ، ولكنى لم أفعل ، بل اكتفيتُ بأن دعوتُ الفرائش فَحَمَلْ هذه الأدوات ووضعها فى مكانها ، ثم بدأ الدرس . . .

« وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليتُ أمر مدرسة ثانوية ، فقلت للأساتذة : إننى ألغيْتُ العقوبات جميعاً ، فلا حبس ، ولا عيش حاف ، ولا شىء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظرتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة ، وخيرٌ له أن يشتغل بغيرها . وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له ، ينبغى له الخير ، ويخدمه ، ويفتح له نفسه ، ويقوى مداركه ، وينمى استعداداته ، وأنه لا يلزمه بدرس ، ولا يفرض عليه شيئاً ، بل يرغبه فى الدرس ، ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط

النظام ، وقد كان . قضينا في هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون .

ولم أكتف بهذا ، بل ألغيت (الجرس) الذى يدق إيذاناً بابتداء الدرس أو انتهائه ، لأننى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم ، وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين ، حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التى تستعمل في المدارس ، والتى تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعى لهم .

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام ، وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر ، فهجرت التعليم إلى الصحافة . ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق ، فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

فقد عمل المازنى خمس سنوات مدرساً في مدارس الحكومة (وزارة المعارف) ثم استقال بعد ذلك ليعمل خمس سنوات أخرى في المدارس الأهلية . . وذلك كما روى هو نفسه . فقد كتب في رسالة بعث بها المازنى إلى أحمد عبيد استجابة لطلبه لينشرها في كتابه (مشاهير شعراء العصر) - حيث ذكر فيها عن فترة عمله بالتدريس (١) :

« تخرجت في مدرسة المعلمين الخديوية العالية سنة ١٩٠٩ م ، وعينتني وزارة المعارف مدرساً للترجمة في المدرسة السعيدية الثانوية ، ثم الخديوية

الثانوية ، ثم مدرساً للغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين الناصرية ، ثم طلبت الإقالة في سبتمبر ١٩١٤ م بعد قيام الحرب الكبرى بشهر فرازاً من اضطهاد وزير المعارف يومئذ ، وكان صديقاً لحافظ إبراهيم الشاعر الذى انتقدته ، واشتغلت مدرساً للترجمة والتاريخ بالمدرسة الإعدادية الثانوية ، ثم بوادى النيل ، ثم عُينت ناظرًا للمدرسة المصرية الثانوية ، ولما قامت الحركة الوطنية المصرية طُلقت المدارس وانصرفت إلى السياسة ، ومازلت إلى هذه الساعة مُحَرِّراً بجريدة الأخبار بالقاهرة .

المازنى صحفياً :

عندما استقال المازنى من عمله في التدريس ليتفرغ لقلمه وعمله الفكرى ، فقد اختار لنفسه بذلك الطريق الذى يسر لموهبته أن تثمر ، ولفكره أن يتحرر ، ولإبداعاته أن تنطلق إلى أقصى مدى .

والواقع أنه عندما اتجه - بكليته - إلى الصحافة لم يكن يرتاد طريقاً جديداً عليه ، بل كان يمضى في ذات السبيل الذى عرفه وارتابه منذ أن كان طالباً بالمعلمين العليا ، يرسل بعض الصحف التى تنشر له ما يوافقها به من قصائد شعرية ، ومقالات نثرية تحمل الصورة الأولى للمازنى - الأديب الناشئ - وقد واصل السير في ذات الطريق بعد أن عمل في التدريس ، لم تنقطع إبداعاته عن الصحف طوال السنوات العشر الأولى من حياته العملية التى جمع فيها بين التدريس والكتابة الصحفية . . ففى هذه الفترة التى امتدت حتى سنة ١٩١٩ م كانت قصائده ومقالاته تنشرها صحف عديدة منها : الدستور ، والجريدة ، والبيان ، وعكاظ الأسبوعية ، والأفكار ، ووادى النيل ، والأهالى (١) .

(١) دكتور محمود أدهم : إبراهيم عبد القادر المازنى - بين التاريخ والفن الصحفى - ١٩٩١ م - مكتبة الأنجلو المصرية - ص ٩١ .

(١) نص هذه الرسالة منشور في كتاب : أعلام الأدب المعاصر في مصر - ٢ - إبراهيم عبد القادر المازنى - للدكتورين : حمدي السكوت - ومارسدن جونز .

بل إن دراساته الأولى قد نُشرت على صفحات تلك الصحف في هذه الفترة ، ومنها مقالاته وأبحاثه عن : الأساليب الكتابية ، والشعر والشعراء ، وشوقي ، وحافظ ، والعقاد ، وابن الرومي ، وشعر حافظ إبراهيم . . . وذلك فضلاً عن العديد من المقالات التي تناولت نواحي اجتماعية مختلفة .

ولكنه إذ استقال وتفرغ للصحافة ، فقد ظل لفترة قصيرة يكتب لصحف ومجلات متعددة ، إلى أن استقر في جريدة الأخبار التي أصدرها ورأس تحريرها أمين الرافعي ، وظل يعمل بها ردحاً من الزمن أثر عنه فيها جولات أدبية وسياسية ملحوظة العناية ، محفوظة القدر في سجل الحركة الوطنية والأدبية على السواء^(١).

ومع أن مدة عمله متفرغاً بالأخبار كانت محدودة ، فإنه قد نشر بها حوالي ٥٠٠ مقالة على مدى حوالي ٥٢ شهراً ، أي : أربعة أعوام وأربعة أشهر . . . وقد بدأت هذه المقالات بمقالته التي نشرها ٢٣ / ١٢ / ١٩٢٠ م ، والتي كان عنوانها : (ينادون في الظلام : حطموا الأقاليم) ، وانتهت بمقالته التي نشرها في ٢٩ / ٤ / ١٩٢٥ م ، والتي كان عنوانها (الجامعة الأميرية ورؤساء أقسامها) . . . نعم حوالي ٥٠٠ مقالة ، غير المترجمات والتعليقات والردود على بعض القراء . . . وإن أهم ما يميز هذه الكتابات عن تلك المتصلة بالمرحلة السابقة أن النمط السياسي منها ، ثم النمط المجتمعي ، كان لهما وجودهما القوي . . . وحتى هذه المقالات السياسية فإنها لم تقتصر على القضية المصرية فقط ، وإن كان من الطبيعي أن تكون لها الغلبة على ما عداها ، وإنما تناولت موضوعات عديدة في السياسة العالمية والعربية ،

(١) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية - ص ٢١٨ .

وهاجت الاستعمار - خاصة الإنجليزى - في أى مكان . . . بل إنه على صفحات هذه الجريدة الوطنية الكبرى ، بدأت مقالات الرجل التي تتناول قضية السودان ، ووحدرة وادى النيل ، ومحاولات إنجلترا فصله عن مصر ، وكذا التفرقة بين الشعبين ، وهى المقالات التي عبرت عن اهتمام أصيل عنده بالسودان الشقيق ، لم يتخل عنه طوال حياته . . . على أن ذلك كله لم يمنعه من طرُق موضوعات أخرى عديدة ، مثل : الهجوم على سعد زغلول ، وتناول حرية التعبير . كما لم يكن ذلك أيضاً على حساب كتاباته المحورية أو الأساسية ، في الأدب والنقد ، أو دراساته الأدبية والفلسفية . . . ونقول إن عددًا لا بأس به من مقالاته النقدية والذاتية (التي نُشرت في هذه المرحلة) قد أُعيد نشرها في كتابه الأشهر : (حصاد المهشيم)^(١).

على أنه في المرحلة التالية لم يشأ أن يقصر مجال عمله ، وما ينشره من إبداعات في مجلة أو صحيفة واحدة . . . حتى لقد كانت كتاباته تنشر في أكثر من عشرين صحيفة ومجلة ، بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة ، سياسية ومجتمعية وأدبية وفنية . . . وكأنه يقول : إنى هنا . . . لقد ظهرت كتاباته - خلال الفترة منذ منتصف عام ١٩٢٥ م وحتى قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ م على صفحات : الكشاف ، واللواء المصرى ، والاتحاد ، وروزاليوسف ، والزهرى ، والجديد ، ومصر المصورة ، والدنيا المصورة ، والمصور ، وكل شئ ، وأبولو ، والجامعة ، والأسبوع ، والمجلة الجديدة ، وشهر زاد ، والوادي ، ومجلتى ، والشباب ، والجهاد ، والراديو المصرى ، والسياسة ، والسياسة الأسبوعية ، والبلاغ ، والرسالة . . . وأهم ما يمكن تقديمه من ملاحظات تتناول هذه المرحلة أنها شهدت كذلك غلق الكتابة

(١) د . محمود آدم - المرجع سالف الذكر - ص ٩٦ : ٩٨ .

السياسية ، ثم النقدية ، وتليها تلك المتصلة بالأنماط الأقرب إلى الأدب ، والأدب الصحفي ، لاسيما المقالات القصصية والفكاهية ، والصور القلمية^(١).

ولعلنا نخص بالذكر جريدة السياسة ، والسياسة الأسبوعية . . فقد بدأ نشر مقالاته بالسياسة الأسبوعية أولاً ، ثم ظهرت مقالاته بعد ذلك في نهاية يوليو عام ١٩٢٨م في الشقيقة الكبرى - السياسة - واستمرت مقالاته بهما . . حتى لقد بلغ ما نشر له في السياسة الأسبوعية (٨٩) مقالة عامة وصورة قلمية أعيد نشر بعضها بعد ذلك في كتابه (صندوق الدنيا) ، في حين استمرت كتابته في السياسة حتى عام ١٩٣٣م ، وقد وصل عدد ما نُشر له بها حوالى أربعين مقالة . . وفي هذه الفترة ذاتها كان يكتب أيضاً في مجلتي : الجديد والهلل^(٢).

وتأتى بعد ذلك المرحلة التى يسميها الدكتور محمود أدهم بمرحلة (النضج والخصوبة) ^(٣)، حيث يصفها بأنها المرحلة الأخيرة من حياته عامة، ومن حياته الصحفية - بصفة خاصة - تلك التى تبدأ منذ نهاية الثلاثينيات وحتى وفاته عام ١٩٤٩م . . أى أنها فى عمر الزمن وبمقياسه حوالى عشرة أعوام أو تزيد قليلاً ، وفى عمره القلمى الأدبى والصحفى معاً ، هى مرحلة النضج والاستقرار والثبات بكل ما يتصل بها من خبرات ، وما تجمّع داخل حدودها من نتائج التجارب العديدة ، وحصاد السنين والمعرفة معاً . . وكان نتاجه - خلالها - يسير فى الجانبين معاً : جانب الأدب ، والأدب الصحفى ، مع عناية خاصة بالجانب الثانى ، وبشكل غير

(١) د . محمود أدهم - المرجع المذكور - ص ١٠٠ .

(٢) د . محمود أدهم - المرجع المذكور - ص ١٠٥ .

(٣) د . محمود أدهم - المرجع المذكور - ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

مسبق ، ونشاط غير مسبوق أيضاً . . فقد كان يُحسن الاختيار لوسائل نشر هذين النشاطين ، فيختار للمادة الأدبية ما يناسبها من صحف أسبوعية ، ومجلات ، وللمادة الصحفية ما يناسبها . وكان من أبرز أنماط نتاجه فى هذه الفترة المقالة الافتتاحية ، ثم مقالة الخواطر والتأملات ، وتلك المجتمعية . . أما أهم الصحف والمجلات التى شهدت كتابته ، وحملت نتاج قلمه إلى القراء فى تلك الفترة فهى : البلاغ ، والهلل ، والرسالة ، والمصور ، والأهرام ، والاثنين ، والدنيا ، وأخبار اليوم ، والأساس ، والجيل الجديد ، والدستور ، والعزيمة ، والمقتطف ، وروزاليوسف ، والمواهب ، ومسامرات الجيب ، والكتاب .

ونضيف إلى ذلك أنه قد نشر لفترة فى صحيفة (الإخوان المسلمون) . . وقيل إنه ودّع الكتابة بها لما لاحظّه من إسرافهم فى عداواتهم ، وغلوهم فى حرب خصومهم الفكرين ، لاسيما حين حرقوا كتب العلم الإنجليزية ، فقد اعتبر ذلك تعصباً لا يتفق ورسالة الإسلام التى تدعو للعمل وتدفع إليه^(١).

ولا نختم هذه الفقرة قبل أن نشير إلى فترة كتابته بانتظام فى (أخبار اليوم) ، ثم (الأساس) حتى وفاته . . فمنذ صدور أخبار اليوم وهو يتابع الكتابة فيها أسبوعياً ، وعلى أثر صدور الأساس - لسان حال حزب السعديين - فقد ظل يتابع الكتابة فيها على نحو منتظم ، ومع ذلك فـ « إن كتاباته على صفحاتها لم تكن حزبية الطابع بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت سياسية عامة . . كانت تعنى بالقضية المصرية بصفة عامة من خلال المصلحة القومية العليا ، وذلك بصرف النظر عن الحزبية والأحزاب ، أو

(١) د . إبراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية - ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

النظرة الضيقة التي تتجه إلى الأمور من خلالها فقط . . بل لعل من أبرز ما يلفت أنظار المتابع هنا هو مواصلة كتاباته لا من منطلق مصرى فقط ، وإنما من منطلق عربى أيضًا ، وهو في ذلك يتحدث عن الواقع العربى ومشكلاته ، لاسيما ما اتصل بموضوعات السودان والقضية الفلسطينية ، وغيرهما^(١).

ذلكم هو المازنى صبيًا ، ثم فتى يافعًا ، في مسيرة حياته التي لم تكمل ستين عامًا ، وتلك هى المجالات التي ارتادها : طالب علم ، ثم مدرسًا ، يجمع بين التدريس والكتابة إلى الصحف ، إلى أن يتفرغ للقلم مع قيام ثورة ١٩١٩م فينذر له نفسه ، ويظل ولا همَّ له إلا الكتابة والإبداع ، في حياة لا عمل له فيها إلا الاشتغال بأمور الفكر ، مدافعًا عن الوطن ، مشغولًا بشئونه وشجونه ومشاكله دون أن ينسيه ذلك إبداعاته الرائدة في عوالم النقد والشعر والأدب بصفة عامة ، والأدب القصصى والصور القلمية بصفة خاصة ، وذلك على النحو الذى نحاول أن نرسم صورة لملاحمه في الصفحات التالية .

الفصل الثانى المازنى وعالمه النثرى

المازنى ناثرًا :

في مقدمة كتابه (حصاد الهشيم) كتب المازنى يقول :

« أيها القارىء :

هذه مقالات مختلفة في مواضع شتى كُتبت في أوقات متفاوتة ، وفي أحوال وصروف لا علم لك بها ولا خبر على الأرجح . . ولست أدعى لنفسى فيها شيئًا من العمق أو الابتكار أو السداد ، ولا أنا أزعمها ستحدث انقلابًا فكريًا فى مصر ، أو فيها هو دونها ، ولكننى أقسم أنك تشتري عصارة عقلى ، وإن كان فجًا ، وثمرة اطلاعى وهو واسع ، ومجهود أعصابى وهى سقيمة بأبخس الأثمان . . ! » .

« أما أنا ، فمن يردّ إلى ما أنفقت فيه ؟ من يعيدلى ما سلخت في كتابته من ساعات العمر الذى لا يرجع منه فائت ، ولا يتجدد كالشجر ، ويعود أخضر بعد إذ كان أصفر ، ولا يرقع كالثياب أو يُرقى ؟ » .

« وفي الكتاب عيب هو الوضوح ، فاعرفه ! وستقرؤه بلا نصب ، وتفهمه بلا عناء ، ثم يُخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل ، وأنك لم تزد به علمًا ! فرجائى إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك ، وأن الحال على نقیض ذلك ! » .

(١) د . محمود أدهم - المرجع سالف الذكر - ص ١١١ ، ١١٢ .

وهذه الكلمات تحمل تاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

وفي مقدمة كتابه (قبض الريح) يردد كلمات سليمان الحكيم : « أنا الجامعة . . كنت ملكاً على إسرائيل في أورشليم ، ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السماوات . . فإذا الكل باطل ، وقبض الريح ! . . »

ثم يقول : « وأنا أيضاً كالجامعة ، وجهت قلبي إلى المعرفة ، وامتنحت نفسي بالسؤال ، وعملت روحى بالتفتيش - بنيت لنفسي (آمالاً) ، غرست لنفسي (أوهاماً) ، عملت لنفسي جنات وفراديس غرست فيها (أحلاماً) ، من كل نوع ثمر . . وهذا كان نصيبي من تعبى . . قبض الريح ! » .

« واستنفد العناء مجهودي كما تنفذ السحابة أراقت ماءها على الأرض . وكلُّ بما عنده يجود ! زرعت حصّى في أرض صفوان ، وهذا حصّادى ، وقبضت الريح من كل تعبى تحت الشمس ، وهأنذا أؤديها إلى القارىء ، وأطلقها عليه كما تلقيتها لو يقنع الطالب المدل ! وقد خرجت كما سيخرج القارىء ، وكما سنخرج جميعاً من هذه الدنيا ، وليس في يدي شيء ! » .

سطور تتفق في مجملها على معانٍ لا يفتأ المازنى يرددها : فحب المعرفة ، والجهد المتصل لتحصيلها ، وبذل حصيلتها في سخاء وأريحية للقارىء . . تلك جميعها هي السمات البارزة في حياته ، والطريق الذى انتهجه أداء لرسالته أدبياً ومفكراً ومبدعاً .

ومازنى - كما ذكرنا - قد ابتدأ حياته شاعراً نذر نفسه لعالم الشعر ، مؤصلاً لمنهج جديد في الشعر الصادق النابع من أعماق النفس ، ثم مبدعاً في نفس الوقت لأشعار لم تجد حتى اليوم من يبرزها ويوفيها حقها ، ويكشف عمّا انطوت عليه - وضمته - من كنوز وذخائر . . نقول ذلك ونحت ناظرينا الدراسات الأصلية التى أشرنا إليها ، والتى دارت حول أشعار

المازنى . . وإن كنا أعلينا من شأن تلك الدراسات إلا أننا ما زلنا نرى أن إبداع المازنى الشعرى ما زال في حاجة لجهود أخرى تُبذل ، وأنه لجدير بالعديد والعديد من الدراسات التى تتناولها من مختلف جوانبه الثرية الموحية .

وإذ ترك المازنى الوظائف واتجه إلى الصحافة ، فقد تغيّر مساره ، بعد أن تفرغ لقلمه كاتباً ومفكراً ، متخذاً من الصحافة مجالاً لنشر ثمار فكره ، ليختار ممّا ينشر - من بعد - فصولاً تضمها بعض كتبه . . وهنا تلقى المازنى - الكاتب المتميز - بعد أن لقينا المازنى الشاعر المبدع .

وفي مجال الكتابة المنطلقة ذهب المازنى مذاهب شتى ، وقد كانت ثقافته العميقة تمده بزاد لا ينفد من الأفكار ، وكان عقله الوثاب يفتح أمامه مجالات للكتابة جديدة غير مسبوقه ، وكانت نظراته العميقة وما فُطِرَ عليه من حب للتأمل ، وميل للتعقّق ، يضيفان على ما يكتب أصالة وعمقاً وتجسّداً ، وأخيراً - بل أولاً - كانت مواهبه الأصلية تدفعه لمزيد من الإبداع ، وتضفى على ما يقدم لقرائه جاذبية شديدة ، بما أُوتى من رقة العبارة ، ودقة التعبير ، مع نزعة أصيلة إلى السخرية الحانية ، التى وُصفت بأنها سخرية تنبّه دون أن تجرح ، وتدلل على مواضع النقص والعيب في سماحة ولطف دون أن تؤذى أو تفضح .

وإذ نريد الآن أن نتحدث عن المازنى الناثر ، أو عن (إبراهيم الكاتب) - مستعيرين منه عنوان أشهر رواياته - فإننا نجد أنفسنا في حيرة : فمن أين تكون نقطة البداية ؟ وعن أى الجوانب نتحدث ؟ وهل ترك من سبقونا مجالاً يمكن لنا أن نتحدث فيه عن المازنى بعد أن كتب عنه كل من سبقونا من كتّاب وباحثين ؟

ونبدأ بالسؤال الأخير ، فنقول : بل بقى الكثير والكثير . . ومهما كتبنا

وكتب غيرنا ممن سبقونا إلى الكتابة عن المازنى ، وعن سوف يلحقون بركبه دارسين - فسوف يظل مجال الكتابة عنه ثرياً خصباً ، يجد فيه كل كاتب بُعِيته ، يستلهم المازنى حياةً وفكرًا ، أو يعرض لدراسته ، مادحًا أو قادحًا . . على أن نتذكر دائمًا هذه الفقرة التى صاغها المازنى برشاقة فى تقديمه لكتابه (حصاد الهشيم) مخاطبًا قارئ الكتاب :

« واعلم أنه لا يعيننى رأيك فيه . . نعم ، يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن يُثَنِّى على بنيه ، ولكنه لا يسوؤنى أن تبسط لسانك فيه ، إذ كنتُ أعرفَ بعيوبه وماأخذه منك . وما أخلقنى بأن أضحك من العابثين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لا يهتدون إلى ما يبغون وإن كانت تحت أنوفهم . . ! » .

وبعد :

فكيف يسير بنا الحديث فى هذا الفصل وقد أوقعنا المازنى فى حيرة بتعدد ما ارتاد من مجالات ، وبكثرة ما اتصفت به كتاباته من مُميّز السّمات ، وبوفرة ما خلّف من آثار مبعثرة ، إن أمكن الاهتداء إلى بعضها ، فما تزال الكثرة منها مطويةً فى بطون صحف يتعذر الوصول إليها ، فضلاً عن حصرها ونشرها ؟

ليس أمامنا سوى الاختيار والاجتزاء . . فما نزعِم أن لدينا الطاقة - أو المقدرة - لتناول ذلك كله . . بل ما نزعِم أننا فيما سوف نختاره من مواضيع سيكون فى وسعنا أن نوفىها كامل حقها ، أو نتناولها من مختلف جوانبها .

المازنى كاتباً متميزاً :

عرفته الصحافة - أول ما عرفته - شاعراً مبدعاً ، كما عرفته صاحب دعوة جديدة فى الشعر ، يوجه نقده اللاذع إلى شعراء عصره ، وقد خصّ منهم بنقده شاعراً كبيراً ذا شهرة عريضة بين شعراء مصر ، هو : حافظ إبراهيم .

ثم عرفته الصحافة كاتباً يوافيها فى بعض الأحيان بمقالات عن بعض النواحي الأدبية ، فتبادر إلى نشرها . . ثم عرفته بَعْدُ كاتباً متفرغاً لها ينشر فيها مقالاته ، بل ويتولى إصدار بعضها ، ورئاسة تحرير بعضها الآخر ، ومن ثم تعددت مجالات كتاباته ، فما كان له أن يقصرها على الأدب : شعراً ونثراً ، بل كان عليه أن يتناول مختلف الشئون ، ويرتاد العديد من المجالات السياسية والاجتماعية .

ولاشك أن الصحافة كان لها تأثيرها - ليس على أسلوب المازنى - وإنما فى اختياره لمفرداته اللغوية التى يستعملها للتعبير عن أفكاره وآرائه . . نعم . . فقد غيّرت الصحافة ، أو غيّر هو من أسلوبه ليتلاءم مع وسيلة النشر - صحفاً أو مجلات - لا تقتصر قراءتها على الخاصة ، وإنما تصل إلى مختلف الأوساط ، ولابد لمن يريد أن يصل خطابه إلى جميع القراء أن يختار العبارة المُيسّرة ، والألفاظ الشائعة ، ويتحاشى كل ما هو مهجور غير مطروق ، سواء فى تركيب الجُمْل أو فى اختيار اللفظ .

وليس معنى ذلك أن المازنى كان لا يتحرّى الجمال فى صياغة مقالاته ، أو كان يهبط إلى مستوى العامة ، أو لا يحرص على سلامة اللغة . . بل استطاع فى يسر وبساطة أن يصل إلى حل هذه المشكلة بأن يوازن بين الحفاظ على جمال اللغة - التى وُصفت بأنها اللغة الشاعرة - وبين مراعاته مستوى القراء من مختلف الأوساط ^(١) .

وقد نجح المازنى فى هذه الموازنة نجاحاً غير مسبوق ، ولعل لطبيعته السمحة السخية أثرها فى هذا النجاح ، فقد راح يصوغ مقالاته فى أسلوب سلس ورفيق ، وإن ظلّ متسامياً إلى الجمال ، محافظاً على روعة التعبير .

(١) هذا هو وصف الأستاذ العقاد للغة العربية ، وهو فى ذلك الوقت عنوان لأحد مؤلفاته الذى اختار له «اللغة الشاعرة» عنواناً وموضوعاً .

وكان حرصه الأكبر - فضلاً عن سلامة التعبير ، وروعة الصياغة - على تحرّج الموضوع في الإبانة عما يريد قوله ، والإفصاح في بساطة عن المعاني التي يطرحها على قارئه . . فهو لا يعرف الغموض أو الإبهام ، ولا يلجأ إلى الرمز والإلغاز ، بل يعتمد إلى التعبير المباشر ، والقول الصريح ، وما كثرة الجمل الاعتراضية في أسلوبه إلا لهذا الحرص على زيادة الإيضاح ، وعلى تحاشي أدنى احتمال للخلط أو للخطأ .

وقد قيل بانه كثيراً ما يستطرد في حديثه ، وينتقل من موضوع إلى موضوع ، وهو قول يحتمل عدة أوجه ، منها ما قد يحمل على محمل سيء ، إلا أننا نرى - وبحق - أن هذا الاستطرد ما هو إلا إحدى مزايا المازني ، ولا يمكن اعتباره من معايب أسلوبه ، فهو في كل ما يكتب لا يجيد عما يقصد إليه ، ولا ينسى أبداً الغاية التي ينشدها ، وما الاستطرد عنده إلا رغبة منه في استيفاء مختلف جوانب الموضوع الذي يتناوله . . وهو - بعد - يعتبر القارئ صديقه ، وما يعيب حديث الصديق أن يتوقف في بعض المواضع ليروى قصة عارضة ، أو رأياً خطر له ، فلم يشأ أن يتركه يفلت منه - أو من صديقه - ليعود بعد إلى ما بدأ به حديثه . ثم إن ذلك هو نهجه الذي تميز به ، والذي كان - ولاشك - من الدواعي التي ربطت بينه وبين قرائه برباط وثيق .

بل إن هذا الاستطرد كثيراً ما كان يعنى شيئاً آخر ، ربما كان يعنى استقصاء الموضوع استقصاء كاملاً ، بحيث يوفيه حقه من البسط في القول ، والدقة في التصوير بما لا يدع مجالاً لزيادة مستزيد ، وكأنني به يضع نفسه موضع قارئه ، فيتطوع سلفاً بالإجابة عن كل ما قد يثيره القول من أسئلة ، أو يتطلبه من زيادة بيان ، فلا ينتظر حتى يصله السؤال ، بل يبادر إلى الجواب ، وكأنه يحس أن حق قارئه عليه أن يصل إليه المعنى كاملاً واضحاً ،

بسيطاً وسهلاً . . ولن تجد استطراداته إلا متصلة بالموضوع لسبب أو لآخر . !

والمازني بعد يتبسّط في أحاديثه ، ويكثر من مخاطبة قارئه ، وكثيراً ما يختار مفردات يُحيل إلى قارئها أنها من (العامية) ، وهي في حقيقتها من اللغة الفصحى ، وإن لم يدرك ذلك كثيرون ، ويندر أن يستعمل لفظاً عامياً صرفاً ، وإن لم يجد عن ذلك معدّي وُضْعُهُ بين قوسين .

وهو كذلك يميل إلى أن يصوّر الواقع في صدق ، ويضفي عليه من الظلال والألوان ما يجعل منه صورة حية ناطقة ، حتى ليخيل إلى قارئه أن صدّ الضحكات يصكّ سمعه ، وأن ما يصوره يمثل أمامه نابضاً بالحياة ، فياضاً بالحركة .

وكثيراً ما يلجأ إلى لغة الحوار ، فلا يجمل الرواية ، وإنما يفصلها ، تاركاً لكل طرف من أطرافها أن ينطق بالرأى ، أو يأتي بالجواب ، ولا يتدخل المازني إلا في نهاية الحوار ليستخلص شاهده ، أو يشير إلى وجه استشهاده .

وهو كثير الإشارة إلى آراء الآخرين من المفكرين وذوى الرأى ، سواء من كُتّاب الغرب أو العرب ، ولكنه لا يأخذ بهذه الآراء دون مناقشتها ، والتعليق عليها ، وإثبات موقفه منها . . وذلك كله على نحو يدل على سعة اطلاعه ، وتنوع وتعمق معارفه . . وكأنه يريد أن يرتقى بقارئه ليلبغ مبلغه علماً وتحصيلاً ، ونشدان جمال .

وهو - بعد - يميل إلى الموضوعية ، ويساند أفكاره وآراءه بالعديد من الأدلة ، وكأنه لا يريد أن يترك قارئه إلا وقد أقنعه بما يذهب إليه . . وموضوعيته هي الموضوعية الواقعية ، ومن هنا نجد كثرة ما يورده في مقالاته من روايات لحوادث يعرفها أو وقعت له ، يصورّها على نحو رائق وبسيط ، بل كثيراً ما يستشهد بها وقّع له من أحداث ، وما مرّ به من تجارب ، وكأنه

يوذ أن يدخل بقرائه إلى عالمه ، يطلعه على أسرارهِ ، ويكشف له عن أعماق نفسه ، وطوايا قلبه . . كل ذلك في بساطة أسيرة .

غير أن الملاحظ أن هذا النهج الواقعي لم يكن هو أسلوبه في مرحلته الأولى التي كان يمارس فيها الكتابة هاوياً غير محترف ، إنها هو قد تطور - وطور نهجه - مع اشتغاله بالصحافة وتفرغه لها ، فكان لذلك تأثيره في أدبه وإنتاجه ، بل في نهجه في الحياة بصفة عامة . . وقد حرص هو نفسه على أن يتحدث عن هذا التطور في إنتاجه ونهجه ، فكتب يقول :

« . . كان أدبي نظرياً بحثاً ، أو قل إنه الأدب الذي يعتمد على الكتب ، ولا يستمد من الحياة إلا قليلاً ، لأن صاحبه لا يعانيها معاناة وافية . وكنت أقول الشعر أيضاً في ذلك الزمان ، وأرى الآن أن ما قلت لم يكن سوى توليد من القديم كنت أحسبه جديداً ، لأنه لم يكن مظهرًا لاستجابة النفس لما يهيب بها من الحياة إذ توقعها . وكنت متكلفاً في أسلوب الشعر والنثر جميعاً ، لأنني أعيش بين الكتب ، ولا أكاد أعرف سواها إلا ظناً على الأكثر ، ولهذا كان أدبي في ذلك العهد دراسات في الأغلب قوامها القراءة وحدها تقريباً ، وشعرًا لا يصور النفس على حقيقتها ، ولا يعبر عنها تعبيراً صحيحاً ، لأن الاقتباس فيها بالقديم - من شرقي وغربي - أكثر من الاستمداد من التجريب . وكنت بطيئاً في الكتابة والنظم ، معنيًا بالتجديد كما كنت أفهمه ، وكنت مع عنايتي بالمعنى لا أرضى عما ترضى عنه أذنّي حين أعرضه عليها . . »

ويقول في موضع آخر : « لم أكن راضيًا عن الأسلوب الذي تكتب به الصحف ، ولكن عدم الرضا عن لغة الصحافة لا يستوجب أن أذهب إلى

(١) د . نعمات أحمد فؤاد - المرجع سالف الذكر - ص ١٩٠ ، ١٩١ نقلًا عن العدد الخامس من السنة الأولى من مجلة الكاتب - مارس ١٩٤٦ م - ص ٦١٨ .

الطرف الآخر ، وفي الإمكان التوسط ، وتبينت على الأيام أن لغتي القديمة فاترة أو خامدة ، وأنّي كأتى قطعة متخلفة من زمانٍ مضى ، وأن الحياة الجديدة لها لغتها ، وأن اتصالي بحياة الناس بفضل الصحافة قد فجّر في نفسي ينابيع جديدة ، وأكسب أسلوبى نبضًا ليس من الوجد ، بل من الحيوية ، وأفدّت مرونة كانت تنقصني أنا ، وتنقص لغتي وأسلوبى ، وأصبحت قادرًا بفضل الصحافة أن أكتب في أى وقت ، وفي أى موضوع ، وفي خلوة أو بين الناس ، وأن أحصر ذهني فيما أنا فيه ، فلا تشتت خواطري الضجّات التي كانت حولي » (١) .

المازنى ساخرًا :

وثمة سمة أخرى ميّزت المازنى أسلوبَ كتابته ، ومنهجَ تعبيره ، وهى تلك النزعة إلى السخرية ، التى كثيرًا ما تغلّف كتاباته . . وهى - فى الواقع - نزعة تسمو بالسخرية إلى أعلى مراتبها . . فهى سخرية لا تسيء إلى أحد وإن أضحكت القارئ ، أو على الأقل ساهمت فى التسمية عنه . . وربما كان ذلك من أهداف المازنى . . وهو نفسه قد كشف عن هذه النزعة ، وحاول أن يجلّى أسرارها فى إحدى مقالاته ، فقال :

« أنا فى العادة أؤثر الاحتشام أمام الناس ، ولكنى حين أكون بين إخوانى وخلصائى أطلق لنفسى العنان ، ولا أبالى ما أقوله أو أفعله ما دمت أريد أن أقوله أو أفعله . ولو وسعنى أن أملأ الدنيا سرورًا واغبتابًا لفعلت ، فإننى أعظم الرثاء للخلق ، وأحسب أن هذا تعليل ملى للفكاهة ، فإننى أتسلّى بها ، وأنشد أن أدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقادی أن عند كل منهم ما يكفيه من دواعى الأسى ، ومادام فى الوسع أن نعرض عليهم الناحية

(١) د . نعمات أحمد فؤاد - المرجع سالف الذكر - ص ١٩٠ ، ١٩١ نقلًا عن العدد الخامس من السنة الأولى من مجلة الكاتب - مارس ١٩٤٦ م - ص ٦١٨ .

المشرقة الضاحكة . . فلماذا نغمثهم ونحزنهم ؟ ثم إن للفكاهة مزية أخرى ، هي أنها أقوى ما أعان على احتمال الحياة ومعاناة تكاليفها ، والنهوض بأعبائها الثقالة ، فهي ليست هزلاً ولا تسلية فارغة ، وإنما هي تربية للنفس ، والرجل الذي يَلْقَى الحياة بابتسامة المدرك الفاهم - لا الأبله الغافل - خير وأصلح ألف مرة من الذي لا يزال يدير عينيه في جوانبها الحالكة ، ويندب ويبكى ويعول ، ولو نفع السخط والغضب والبكاء لقلنا : حسن ، فلماذا لا ننظر إلى الجانب الوضاء ؟ أو لماذا عنه وهو موجود ؟ أى : لماذا نفقد القدرة على الاحتفاظ بالاتزان ، أو صحة الوزن للأمور ؟ ^(١) .

وللسخرية - أو للفكاهة عند المازنى صور عديدة ، فقد تأتى في الجملة العارضة ، أو في الوصف العابر ، أو في التعبير الموحى ، أو في الصورة الناطقة ، أو في المضمون الساخر .

ولعل من الصور الجامعة لسخريته أو ميله إلى الفكاهة - والكاشفة عن سماتها الهادئة السمحة - هاتين الفقرتين اللتين يتحدث فيهما عن لقائه - وزوجه - مع الشيخة صباح :

« فقد كانت الشيخة صباح ، على الرغم من (التمشيح) غيداء ، حسناء ، مبتلة ، ورطبة حلوة ، يجرى ماء الشباب في محياها من نضرة النعمة ، ولو طبع وجهها على جنبه لَزَانَتْهُ وَأَغْلَتْهُ ، وكان شعرها الفاحم السبط ، والورد الذى تتضرج به وجنتاها من آيات صنع الله ، تبارك وتعالى من خلّاق عظيم ، أما عينيها النجلاء الرقيقة الجفن ، (الجنيّة) الإنسان ، فأنفذ من أشعة (إكس) إلى حنايا الصدور ، وطوايا القلوب » .

« وقلت : إذا كنت تشعرين أنك لن تطيقى الحياة إلا إذا حملتك إلى ذلك البيت الضيق لأحتق ساعاً بالبخور المنطلق من المجامر حتى تتفضل فتبرز

لك ، وتمنّ عليك بإنائك ، وأنا من الشاهدين : أن (أمامك سفرًا . .) ، فصاحت بى مقاطعة : اسكت ، وحذار أن تذكرها بغير الخير . . فسكت ، وما حيلتى ؟ » .

« وَرُفِعَ السَّخْفُ ، ودخلت علينا الشيخة صباح مسترسلة الأعطاف ، ناعمة ، غير مُسَيَّية على لينها ، كأنها ملكة . وكانت ترتدى ثوباً أبيض رقيقاً من الكتان ، وتغطي رأسها بشفّ يسدل على جانبي وجهها إلى كتفيها وصدرها الناهد ، ويحجب جيدها الأتلع ، ويدور على ذقنها إلى قريب من ثغرها الدقيق الرفاف الشفتين ، الذى ما خلّق إلا للقبلات الحار ، لا لما يلهج به ، وأستغفر الله . .

وقبّلت زوجتى ، ومدّت إلى يدا رخصة هممت أن أبوسها بطناً وظهرًا ، لولا هذه الزوجه التى لا تزال تظلمنى بسوء ظنّها . . ولما دارت القهوة ، نظرت إلى وقالت : أرنى كفيك . . ابسطهما . ولمستهما لمسًا خفيفًا ثم أرسلتهما ، وأطرقت شيئًا ثم رفعت رأسها وحدّقت فيّ دون أن تطرف وقالت : ستعطى ما لم تطلب ، وتؤتّى ما لا يُباع ولا يُشترى ، وتُسَلَبُ في اليوم نفسه ، فرفعت عيني إلى السماء - أو إلى السقف - ولمحت زوجتى وقد أخذ كتفاها يهتزان من الضحك المكتوم . ومضت الشيخة صباح في نبوءتها غير عابئة بنا : (. . وسيُنْضَى عنك ثوب الرجولة . . إلى حين يا صاحبي) ، ونحّت وجهها عنى . وقالت وهى تودّعنا : أحسبني لم أخاطب منك سوى أذنيك ، فإني أحس أن قلبك بعيد . . فأكدت لها أنه مازال في موضعه تحت الضلع العاشر ، أم تراه الخامس عشر ؟ معذرة ، فلست أعرف عدد هذه الضلوع . فجذبتنى امرأتى من ذراعى ، ثم دفعتنى خارجًا ، وسمعتها تقول للشيخة صباح : إنه يمزح . . فلا تغضبى عليه . . فقرضت أسناني ولم أقل شيئًا ^(١) .

صورة تفيض بالفكاهة - والسخرية - في آن واحد . . تشيع في النفس راحة ، وتبعث فيها بهجة وسرورًا ، وهى - مع ذلك - تمضى بك هينة ليّنة ، وتنقلك إلى موضع الأحداث ، وتكاد تنقل إليك ليس فقط ما دار من أحاديث وما جرى من أحداث ، بل تنقل إليك أيضًا ما تردّد من أنفاس وما اعتلج به الصدر من شعور وإحساس . . !

وقد كتب كثيرون عن هذه السخرية ، وتساءلوا : ما مصدرها ؟ وما غايتها ؟ وهل هى نابعة عن نزعة استخفاف بالحياة ، واستهانة بالآلام ؟ أم أنها تنفيس عن صدر مكلول ، ونفس ضيقة ، وكأنها ردّ الفعل لحزن عميق ؟ وتجاهل الجميع ما قاله المازنى نفسه فيما نقلناه عنه من أنه إنما يتسلى بها ، وينشد منها أن يدخل السرور على قلوب الناس ، لاعتقاده أن عند كل منهم من دواعى الأسى ما يكفيه .

ونضيف : إنها صدى لطبيعته ، وتعبر عن تحرره ممّا كان يقيد به نفسه من قيود ، انطلق بعدها على سجيته ، يتحدث ، ويُحدّث ، ويكتب ، ويكشف عن أعماق نفسه ، بل يسخر حتى من المازنى نفسه ومن مواطن الضعف فيه .

ومع ذلك ، فهو لم يتخلّ قط عن نزعة الصدق التى تسم كل سطور كتاباته .

وتتجلى هذه النزعة الساخرة أوضح ما تتجلى فى عناوين مؤلفاته ، وفيما يصدرها من إهداءات أو مقدمات .

إن أول ما صدر من كتب ضمت مقالات المازنى وأبحاثه متعددة الأغراض كان كتابه : (حصاد الهشيم) ، فانظر معى ماذا يحصد الواحد منّا من الهشيم الذى تذروه الرياح ؟ إن الكاتب هنا ليسخر من كل جهده ، وكل مقالاته التى جمعها فى كتابه .

وبالمثل كان اختياره لعنوان كتابه الآخر : (قبض الريح) . . فكيف وأنى للمرء أن يقبض الريح ، أو يمسك به ؟ وربما كان مقصده أن مقالاته التى تضمنها كتابه كانت ريحًا عاصفة عصفت بمن تناولته . . ولكنها مع ذلك مضت ، وانقضى أمرها دون أن تخلّف أثرًا سيئًا ، وإن ظلت تمثل أثرًا فريدًا فى النقد الساخر . . !

وإذا كان قد أطلق على روايته الأولى اسم (إبراهيم الكاتب) بما قد يلفتنا إلى الصفة الأولى التى تميزه عمّن سواه ، وهى انشغاله بالكتابة ، وهى فى ذات الوقت تذكرنا بسلفه : عبد الحميد الكاتب الذى كانت الكتابة حرفته وشهرته - فهو قد صدّر كتابه بإهداء غاية فى الطرافة ، فقد أهداه : « إلى التى لها أحيا ، وفى سبيلها أسعى ، وبها وحدها أعنى طائعًا أو كارهاً . . إلى نفسى » .

ثم أتبع ذلك - بعد فترة طويلة جاوزت العشرين عامًا - برواية تستكمل مسيرة إبراهيم الكاتب ، حريصًا شديد الحرص على أن يلفت نظر قارئه - منذ مطالعته للعنوان - إلى أنه بصدد حديث عن حاضر يتصل بإضى (الكاتب) ، فإذا به يطلق على روايته (الجديدة) عنوان : (إبراهيم الثانى) ، ويزيد الأمر إيضاحًا فيقول : « إبراهيم الثانى هو (إبراهيم الكاتب) أو كأنه على أصح القولين ، ثم تغير جدًا ، لو أمكن أن يلتقى الإبراهيمان لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف » . . وإذ كانت مدار الأحداث فى الرواية الثانية هى الزوجة ، وهى تُدعى فى الرواية (تحية) - فقد حرص على أن يكون الإهداء إلى :

« إلى كل (تحية) يشقى صبرها ببعْلِها . . أحيانًا » .

ومن هنا نجد السخرية الهادئة هى سمته ، سواء فى اختيار عناوين كتبه ، أو ما يصدرها به من إهداءات أو مقدمات . . وهو ذات النهج الذى

اختاره لكتابه (خيوط العنكبوت) ، وهو يضم مجموعة من القصص والصور في قسمين : صور من (الأمس) ، وأخرى من (اليوم) وأول ما يلفت النظر فيه هو هذا العنوان (خيوط العنكبوت) التى وصفها المولى العلي بأنها أوهن البيوت - أو الخيوط - فانظر إيجاء هذا العنوان وطرافته ، واقرأ معى هذا الإهداء :

« إلى ابني الصغيرين : رضا عبد القادر المازنى الذى أوفى على السادسة ، وعبد الحميد عبد القادر المازنى الذى شارف الرابعة : اعترافاً بفضلهما على ، وشكراً لمعونتهما لى ، فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين » .

وكذلك جاءت عناوين كتبه الأخرى : صندوق الدنيا - ع الماشى - فى الطريق - من النافذة - عود على بدء - ثلاثة رجال وامرأة (ولعله أول من استعمل الرقم العددى عنواناً لقصته) . . إلخ .

ولنا أن نرى أن سخريته هى - بصفة عامة - سخرية تشعر قارئها بأنها صادرة عن طبيعة مرحة ، وعن نفس سمحة ، لا تنطوى على أى افتعال ، ولا تحمل سمة (الصناعة) أو (التلفيق) ، أو الرغبة فى أن يبدو الكاتب ساخرًا ظريفًا ، وهو فى الحقيقة لم يُوْتْ ملكة السخرية . . فالواقع أن سخرية المازنى إنما هى صورة من نفسه ، وتصوير لطبيعته ، وتعبير عن طبعه وأسلوبه ، تصدر عنه فى يسر وبساطة وتدق ، وكأنه يؤكد فى كل حرف يكتبه : هكذا خلقت ، وما أعطى إلا ما عندى ، وما أحاول - فيما أكتب - أن أصنع قولاً أو اصطنع أسلوبًا ، أو أفعل تعبيرًا ، بل إننى لأؤثر أن أتحدث إليكم كما يأتى الحديث : عفو الخاطر ، فإن أعجبكم وأرضاكم فإن هذا لَمَّا يسعدنى ، ويدخل السرور على نفسى ، ويشيع الغبطة والفرحة فى أنحائها . . وإن أغضبكم - أو لم يرضكم - فأصارحكم القول : بأن هذا هو كل ما عندى ، وما جادت به قريحتى ، وخيركم من جاد بها عنده - كما يقول المثل الشائع .

وقد لفت نظرنا - فيما يتصل بسخرية المازنى - تلك الفصول التى كتبها باحثون مجدون ، وكُتِّبَ أفاضل عن هذا الجانب من جوانب المازنى ، حيث ضمنوها نتائج أبحاثهم ، وخلاصة آرائهم التى أقاموها على ما مهدوا به من أسباب ، ومقدمات ، ودراسة للوسط الاجتماعى ، وللأصول التاريخية ، وللعوامل الوراثية . . إلى آخر ما هنالك من مقومات للأبحاث ، وأسس علمية ينبغى أن تقوم عليها الدراسات الجادة .

ولست أدري لم وجدت نفسى منصرفاً عن هذه الأبحاث ، غير حريص على أن أحيط بها إحاطة دارس متعمق ، وإذا كنت أقر وأعترف أننى كنت بجانباً للصواب فى هذا المسلك فإننى أود أن أعترف بين يدي القارئ أن دافعى إلى ذلك هو إيمانى بأن سخرية المازنى إنما هى طبع لا تطع ، وأنها سمة أصيلة لا صفة مكتسبة ، شأنها شأن سائر الظواهر الطبيعية التى تقف الدراسة بشأنها عند مجرد الرصد والتسجيل ، لأنها حقائق (كونية) ، تدور الدراسة حولها كظاهرة قائمة لها آثارها ونتائجها .

فالمازنى الساخر ، وإن كان قد نَمَّى موهبته بالدراسة والاطلاع ، وصقلها بمداومة الكتابة والإبداع ، فإن جذور السخرية عنده هى طبع أصيل ، تبدو ملامحه فى كتاباته الأولى ، كما تبدو فى كتاباته الأخيرة ، بل حتى فى كتاباته الحزينة ، فإن بعض ملامح السخرية تتغلب على نزعة الحزن ، ونوازع الألم . . ومن هنا فإن أصدق ما يكتب عن المازنى - عندنا - هو ما يصدر عن محاولة لفهم طبيعة المازنى الساخرة بأبعادها الحقيقية التى تعلو على الصناعة ، وتصدر بريئة من الافتعال . . !

ومن هنا كان المازنى متميزاً بين معاصريه ، يختلف عنهم فكراً وأسلوباً ومنهجاً ، حتى مَنْ شاركاه مدرسة الديوان ، فلم يكن المازنى صورة لأىٍّ منهما ، وإن اتفق معهما فى بعض الآراء . . فقد كانت للمازنى شخصيته

المتميّزة ، وكان له أسلوبه المتفرد ، ورأيه المازنيّ الأصيل . . . وكان في كل ما يكتب نسيجٌ وحده ، ولم يكن في وقت ما صدق لسواه ، وعلى ذلك كانت له مكانته الخاصة التي احتلها بين رفاق مسيرته ، والتي سيظل يحتلّها على مر العصور .

المازني وعالم الرواية :

كان المازني من رواد كُتّاب الرواية في مصر ، وقد أبدع في عالم الرواية أكثر من أثر ، غير أن إبداعاته جميعها لم تحظَ بما هي جديرة به من الدراسة والعرض ، فيما عدا روايته (إبراهيم الكاتب) ، فهي وحدها التي نالت شهرة كبيرة ، وتعددت كتابات الدراسين عنها ، وقرنوا دائماً دراستها بدراسة بدايات ظهور الرواية المصرية ، ومن ثمّ فهم يجمعون بين كتب ثلاثة هي : (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل ، و (الأيام) لطفه حسين ، و (إبراهيم الكاتب) للمازني ، ويشيرون إلى هذه الأعمال الثلاثة على أنها تمثل المحاولات الأولى - التي اهتمت عناصرها الفنية إلى حد كبير - في إبداع الرواية المصرية ، والتي كانت بمثابة الأعمال الرائدة ، والتي شقت الطريق لمبدعين كبار في عالم الرواية والقصة .

ونحن إذ نُقرُّ لأصحاب هذه الأعمال بالريادة ، فإننا لا ننكر بالطبع جهود من سبقوهم ، وإن جاءت أعمالهم أقل فنية ، ومن ثمّ لم يكتب لها البقاء والانتشار ، حتى ليتعذر على الباحث أن يُتاح له الاطلاع على معظمها ، ومن ثمّ فإنه يكتفى بالتعرف عليها من كتابات بعض السابقين الذين أشاروا إليها .

وروايات المازني - كسائر كتاباته - هي صورة منه ، أو هي في الواقع حديث نفسه إلى نفسه ، أو إلى قارئه الذي يعتبره بعض نفسه . فهي بسيطة يسيرة ، لا تميل إلى تعقيد الأحداث أو افتعال الوقائع ، بل تقف روايتها

عند ما هو مألوف ومعروف ، دون ميل إلى الشذوذ أو الإغراب ، حتى ليظن قارئها أنه كان في وسعه أن يكتب مثلها ، وهذا في حد ذاته هو الدليل على أنها تأتي قريبة من نفس القارئ . . . بالغة التأثير ، حتى ليرى فيها صورة من حياته ، أو على الأقل مما يعرف من حياة .

ولعل مصدر ذلك أن معظم هذه الروايات إنما كان وحيًا مستمدًا من حياة المازني نفسه ، وما مرّ به من أحداث ، حتى ليختلط الأمر في كثير من الأحيان ، فلا ندري ما إذا كان الكاتب يتحدث عن نفسه حديثًا ذاتيًا أم أنه يقدم عملاً فنيًا : (رواية تستوحى حياته الشخصية بعض أحداثها) . . . على أن القارئ - أيّا ما كان الرأي - يظل طوال صفحات الرواية مرتبطًا بكتابها ، وكأنهما رفيقان يمضيان معًا في طريق واحد ، وأولهما يمضي في حديثه الشيق والصريح أيضًا ، يروي ما يود من أحداث ، ويقدم ما لديه من صور ووقائع ، دون أن يغفل التدخل - بين الحين والآخر - معلقًا برأى ، أو مبدئًا فكرة ، أو مفلسفًا لما وقع - أو لما سوف يقع - من أمور . . . ناهيك عن الوقوف طويلاً محللاً ومعللاً دون أن يترك للأحداث - في تطورها - تلك المهمة .

على أن رواياته تشدّ القارئ إليها ، وتجعله يعيش بين صفحاتها ، معاشراً لشخصياتها ، مصاحباً لها ، يستمع إلى ما تقول ، ويطالع صورها ، وأفكار أصحابها ، من خلال تقديم الكاتب لهم ، ورسمه لملاحظهم . . . ومهما ينقضي من زمن فلا يمكن لقارئ (إبراهيم الكاتب) أن ينسى (الشيخ على) ، و (أحمد الميت) - برغم أنها قد يكونان شخصيتين ثانويتين - وما ذلك إلا لما يحسه من تعاطف معها ، وألفة لها ، وكأنه رآهما في الواقع ، وعاشيهما - بالفعل - في الحياة .

ورواياته جميعاً - فيما عدا إبراهيم الكاتب ، وإبراهيم الثاني - تتبع - في

أغلب الأحوال - مساراً مستقيماً متطوراً بتطور أحداثها . . فلا يلتفت قارئها إلى الوراثة إلا للربط بين ما استجد وبين ما سبقه من أحداث . . على أن ما في إبراهيم الكاتب من خروج على هذا النمط إنما يرجع - كما أوضح المازني نفسه - إلى ظروف كتابتها - كما سوف نعود إلى ذلك فيما بعد .

وهي روايات ترسم صورة صادقة لحياة كاتبها ، وعالمه الاجتماعي والفكري ، وعلى ذلك فهي ليست من الروايات الواقعية التي تتعمق الحياة ، وترسم صورة للواقع القائم ، وللأحداث التي تقوم على الصراع ، والتشابك والتجاذب والتناحر - بكل تفاصيلها ودقائقها - وإن كانت مع ذلك لا تخلو إلى سماء الخيال ، ولا تقوم على محض التصور . . فهي مستمدة من الواقع ، ولكنه واقع (مجتمع) معين ، هو (المجتمع) الذي يعرفه الكاتب ويحييه .

وروايات المازني ليست من اللون الرومانسي المغرق في رومانسيته ، فقد كان يرى في ذلك اللون ضعفاً لا يليق بالرجل القويم . . وكم أخذ - بل وحمل - على المنفلوطي انحيازه لهذا اللون الذي يصم أصحابه بالضعف وخور العزيمة ، وما هكذا تكون الصورة الصحيحة لابن الحياة الذي ينبغي أن يعد دائماً لمشاقها ومتاعبها ، متحملاً ما يلقي ، مجاهدًا ليتخطى كل ما يعترض سبيله من عقبات .

وهو يغدُ كثير التوقف ليحلل ويناقش ويبدى الكثير من الآراء المباشرة ، وكأنه لا يود أن يدع فرصة إلا ويفيد قارئه علماً ومعرفة ، ويسلط أمامه ما يكون لم يتبينه من نوازع خفية ودوافع داخلية .

وشخصياته ليست جامدة ، بل متطورة ، ولكن بصورة هادئة ، وعلى مهل ، وغالبًا ما يكون ذلك التطور نتيجة اقتناع أدى إلى التغير : في النظرة ، أو في السلوك ، والأغلب أن يكون صاحب الرأي الذي أحدث هذا التطور - أو التغير - هو البطل الذي عليه مدار الأحداث . . سواء كان (إبراهيم الكاتب) ، أو (إبراهيم الثاني) ، أو (إبراهيم المازني) نفسه . . ١

ونصل إلى ما أبرزه كثيرون من النقاد الذين - وإن اعترفوا للمازني بالريادة - أخذوا على رواياته الكثير والكثير من أوجه النقد .

فقد أخذوا على المازني عدم مراعاته - بصفة عامة - للأسس الفنية التي تقتضى أن يقنع الكاتب بدور الراوى ، دون أن يتدخل بالرأى ، أو بالتفسير - أو بالنصيحة - وأن يترك أحداث القصة هي التي تكشف عن التطور ، وهو ما يقتضى أن يتحقق للشخصيات نمو طبيعي مع مسار الأيام . . وأن تكون للقصة بداية ووسط ونهاية . . إلى آخر ما هنالك من أسس (فنية) توضح عليها النقاد ، وتعارف عليها الدارسون .

قليل إنه لا يلتزم بهذه الأسس ، فقصصه أشبه ما تكون بأحاديث مرسلة ، وكأنه ما اتخذ هذه الشخصيات إلا لإبداء آرائه ، وليضع على ألسنة أصحابها ما يريد أن يقوله . . فكأنه يكتب مقالاً مطولاً على نسق الرواية .

وفي الحقيقة أن هذا ظلم للفن ، ، كما أنه ظلم للمازني في الوقت نفسه ، وذلك لأن فن القصة - أو الرواية - لم يقف - في الحقيقة والواقع - عند أسس محددة لا يعدوها ، فهو فن متطور ، بل شديد التطور ، والدليل على ذلك أن تلك الأسس التي أشرنا إليها سبقتها أسس عديدة أخرى كانت هي المعيار الذي تقاس عليه (فنية) العمل . . كما أن الاتجاه العام للقصة تطور ، وتذبذب بين ألوان متعددة ، وإلا ما ترددت هذه التقسيمات (١) : قصة الحوادث - قصة الشخصيات - القصة التمثيلية - قصة الأجيال - قصة الفترة الزمنية - القصة التاريخية . . وكذلك فإننا نقرأ عن القصة الرومانسية ، والقصة الرمزية ، والقصة الواقعية ، والقصة البوليسية . . إلخ . . ومن هنا فإن الفن لم يعرف - ولم يعترف - بلون واحد للقصة لا ينبغي للقاص أن يعدوه ، ولا بصورة واحدة لا يجوز للكاتب أن يخالفها . . وإنما الأمر متروك

(١) د . محمد يوسف نجم - فن القصة - ط ١ - بيروت .

لكل مبدع موهوب يستلهم إبداعه وفكره . . ولعلنا إذ وصلنا في أيامنا المعاصرة إلى صورة جديدة من القصص غير المفهوم ، مروراً بالقصص اللامعقول . . فإن لنا أن نبحت عن معيار آخر نقيس به إبداع الكاتب ، وهو عندنا - كما عند المازني - معيار الصدق في التعبير - واستيحاء الشعور والفكر في رسم الصورة ، ورواية الحدث ، مع الحرص على بث الحرارة طوال صفحات العمل ، وهي حرارة تنبع من العمل ذاته ، بما يحكى عن عواطف عميقة ، ومشاعر إنسانية نابضة ، بحيث يأتي العمل تصويراً صادقاً لقطاع من الحياة ، أو لفترة من زمان ، أو لحالة مرت بإنسان .

ومن هنا كان لنا أن نرى - فيما قيل عن روايات المازني - ظلماً وأى ظلم للمازني نفسه ، قاصاً مبدعاً ، وروائياً رائداً . . إنه قدّم لنا ما قدّم بطريقة تلقائية ، فيها من الفن روحه وإلهامه ، وإن لم يلتزم بحرفية الفن . . وليس من شك في أن قارئ رواياته يتابعها في شوق ، ويرتبط بها وبشخصياتها في حنان وإعجاب ، وتظل هذه الشخصيات ماثلة للذهن ، مرسومة على صفحة الخيال ، بما تتميز به من صفات ، وبما أقدمت عليه من أفعال ، بل بما تردد على ألسنتها من كلمات وأقوال . . حتى ليخيل إليك أنك تُعايشها ، أو أنها قد انتقلت إلى حياتك - في الواقع - وصارت تعايشك ، وأصبحتم ولا يريد أحدكم لصاحبه - أو صاحبه - فراقاً .

ولا تسألني بعد - وقد وصلنا إلى هذه النتيجة الباهرة - أى المذهب كان يلتزم في إبداعاته ؟ ولماذا لم يترك لشخصياته أن تنمو وتتطور ؟ أو أين كانت العقدة في القصة ؟ وما هي الرسالة التي يريد أن يعبر عنها ؟ ولماذا كان يتدخل كثيراً في سير الأحداث فيبدى الرأي ، أو يقدم التحليل ؟

لا تسألني عن شيء من ذلك طالما أنك - مثلي - لست ناقدًا ممن يشغلون أنفسهم بصناعة النقد ، ودراسة الآثار ، وتحليل الإبداعات ، فأنا وأنت من

القراء الذين إذا قرءوا وأعجبوا ورضوا قالوا : لقد قرأنا وأعجبنا ورضينا . . حتى وإن جاء ذلك على عكس ما يرى أهل العلم بالأدب وفنونه ونقده .

وهذا رأي الذي أقدمه . . وأستغفر أساتذتي من كبار النقاد إذ خالفت آراءهم ، وخرجت على إجماعهم . . وما أحسبهم إلا مشفقين على ، فلن يسئوا أعلامهم للهجوم على ذلك الذي لا يكتفى بأن يقتحم عليهم ميدان تخصصهم ، بل يخرج على ما يقولون . أستغفرهم ، وكل ثقة في أنهم سوف يغفرون ، لأنهم - قبل كل شيء - أهل فن وأدب ، وهم - بالتالي - من عشاق الحق والخير والجمال . . بل إننى قد أفدت من كل ما كتبوا عن المازني ، وعمّا وجهوا إليه من سهام نقد - وعمّا قالوه في كثير من المواضع من عبارات تقدير وإعجاب ، وإن جاءت على استحياء حيناً ، ويقدر في أغلب الأحيان .

وإذ نشير فيما يلي إلى روايات المازني فنذكر أنها ست - كما أن له مسرحية وحيدة - وهي :

- إبراهيم الكاتب (رواية) .

- إبراهيم الثانى (رواية) .

- ميدو وشركاه (رواية) .

- عود على بدء (رواية) .

- ثلاثة رجال وامرأة (رواية) .

- من النافذة (رواية) .

- حكم الطاعة (مسرحية) .

وكم كنا نودّ أن نقرأ معاً كل هذه الأعمال ، ففيها متعة وأى متعة ، ولكن المقام لن يتسع إلا لبعض اللوحات ، فلعل فيها ما يومىء إلى بعض ما نودّ

عرضه وبيانه ، وسوف يقتصر حديثنا عن العملين الأولين فقط .

لمحات عن إبراهيم الكاتب ، وإبراهيم الثانى :

فى ختام روايته (إبراهيم الكاتب) نقرأ هذه السطور التى ضمّنها الصفحات الأخيرة :

« وقالت له أمه ليلة بعد أن ظلت برهة مطرقة تنظر إلى سبحتها ، وتحالسه النظر :

- يا بُنى ، ألم تفكر فى الاستقرار ؟

ولم ترد . كأنها كان هذا سؤالاً أخطره بياها منظر حبات السبحة وهى تتناولها بأصابعها ، فنهض إبراهيم ، وقال وهو يتمشى وكأنه يناجى نفسه :

- الاستقرار ؟ إن البيوت الثابتة إنما اخترعت لأن الإنسان اشتهى السلامة وطلب الأمن ، وأراد أن يكون مطمئناً إلى ما يتوقع . . والحياة تظل تجربة حتى يكون للإنسان بيت ، ويشعر أنه له ، ويصبح مَلِكًا لهذا البيت ، مشدوداً إليه ، مقبلاً به ، والناس فى العادة يرتاحون إلى هذا الشعور ، ويحبون أن يكونوا على يقين من أن هناك وسادة يضعون عليها رءوسهم كل ليلة ، وأن هناك امرأة يسمونها الزوجة ترقد إلى جانبهم ، نعم ، فإن الإنسان إنما يطلب البيت لأنه يطلب الزوجة ، وهو يطلب الزوجة لأنه يريد أن يريح نفسه . . هذا هو الاستقرار . . وليس فيه ما يخدم الآداب والفنون .

فنهضت وهى تتمتم بالدعاء له .

وكتب إبراهيم بعد ذلك يصف ليلته تلك :

« هى ليلة حالكة ، متراكبة الظلمة ، وفى الصدر ضيق ، فأين عن صحرائى أعْدَى ؟ . . ودلفت بى رجلاى إلى المقابر ، فتخللتها إلى جدّتي

فيه شطر من ماضئى ، وقعدت وأسندت ظهرى إلى حجارته ، وأنا أقول لنفسى :

(الموت على الأقل راحة ، فليت الحادى يُعَجِّل بنا ! فقد سئمت الحياة ، ومللت النظر إلى وجهها الملطخ ، وثوبها المرقع ، واشتقت أن أرقد هنا إلى جانب . .)

فخلص إلى صوت من جانب القبر أن (لا) .

قلت : كيف لا ؟ .

واستدرت حتى واجهت أضواء القبر .

قال الصوت : (لا) على التحقيق . إن لى هنا سنوات لا أعلم عددها ، ولعلها أقل مما توهمنى وحشة الوحدة التى تطيل أيامى التى صارت كلها (ليالى) ، أو لعلها كثيرة ، فما أدرى ، وقد حُجبت عنى الدنيا . ولو كان المرء يموت مرة واحدة لقلت لك : صدقت . ولكنه يموت مرة كلما نسيه واحد من الأحياء ، ويشتمل عليه الفناء شيئاً فشيئاً ، وأنت على الأقل تذكرنى فأبقي بذكراك ، فلا تسلمنى إلى العفاء بموتك ! ولسنا نألم الرقاد هنا ، وإن كانت ظهورنا توجعنا أحياناً من طوله ، ولكننا نألم فتور الذكرى عنا ، وإشفاءنا على التلف الأخير . وها هنا فى قبرى - فى حجرة أخرى - جدّ أعلى لى مسكين ، مسكين قد استوفى ميئاته جميعاً ، ولم يبق منه شيء ! . . وليت ادكاريه ينفعه ! إذن لرددت إليه بعض الوجود . . ولكن هيهات ! إنما يجدى الذكر ممّن فوقها دون من هم فى جوفها مثل .

قلت : ولكن إذا تعلقت بالحياة فلا مَعْدَى عن إجابة دواعيها ، أفلا يسوؤك ذلك ؟

قال الصوت : كلا ! سيّان عندى أن تفى لى أو لا تفى . ومن العبث أن

تتكلف لى الحفاظ ، فإننى بعد أن مِتُّ لا يسعنى أن أوليك الشكر الذى تستحقه أو تنتظره . ولا ألثفُ إلى وفائك أو غدرك ، وإنى لأدري فوق هذا أنك لا تذكرنى لذاتى ، بل لما طابت به نفسك ، فافعل ما بدا لك . ولا تُعن نفسك بى من هذه الناحية ، ولكن أبقي لى رقعة صغيرة . . . زاوية من ذاكرتك أفيد بها عذوبة البقاء .

قلت : فإذا نسيتك كغبرى ؟

قال الصوت : إذا نسيت ؟ آه ! ولكن ما لنا وما لم يَقَعْ ؟ دع هذا إلى أوانه عسى أن يكون بعيداً .

قلت : حسن ، سأحيا من أجلك ، وأتقى المهالك إكراماً لك ، وضناً بك أن تلقى الأموات جدّاً .

قال الصوت : اتفقنا . فإلى الملتقى .

فسرت فى بدنى رعدة خفيفة ، ولم يسرنى أن تقول : إلى الملتقى . ونهضت عن القبر ممتلئاً رغبةً فى الحياة ، وضناً بها ، وحرصاً عليها ، وعُدْتُ أدراجى إلى دارى خفيفاً كأنها حططت عن كاهلى وقراً ، وجعلت أقول فى الطريق :

- نعم سأحيا من أجلها !

ولم أدرك المفتاح فى الباب همس فى أذنى الشيطان اللعين :

- تقول من أجل من ؟

وقهقه . . !

فغاظنى ذلك وأخرجتنى أيضاً . فأشحتُ بوجهى ، وأسرعت فدخلت

وأغلقت الباب فى وجهه ! . . .

ولعل كاتبنا كان يتحدث عن زيارته لقبر زوجه الأولى . . فرواية إبراهيم الكاتب إنما تمضى أحداثها عقب خروج بطلها - إبراهيم الكاتب - من مأساة موت زوجه الأولى ، التى جاءت ميّتها على يد الطبيب الذى كان يقوم على (عملية وضعها) . . . حيث فارقت الأم الحياة ، وخرج المولود إلى الحياة . . فكانت مأساة غمرت (إبراهيم) بظلالها ، وآثارها (١) .

وقد ألمّ به مرض استدعى دخوله المستشفى ، « وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بهارى ممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف عند أقاربه حيث يجد بنت خالته (شوشو) الفتاة الجميلة الحية ، وأختها سميحة العائرة الحظ التى ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأحد أقاربها . وأخيراً (نجية) الأخت الكبيرة ، زوجة الشيخ (على) صاحب العزبة التى نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيراً مع بنات خالته ، ولكم داعب (شوشو) وهى طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شبّاً كأخوين ، وانقطع عنها سنين طويلة ، وما هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه ، وحاول أن يقاوم ذلك الحب ، فلم يستطع ، فودّ أن يتزوجها ، ولكن (نجية) لم تكن لتقبل أن تتزوج (شوشو) قبل (سميحة) الأكبر منها سناً ، وأصرّت على أن تكون (سميحة) لإبراهيم . وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ (على) الرجل الحكيم المتزن أن يشى من حماقة زوجته فلم يصل إلى شىء . . . وجرحت كبرياء إبراهيم ، إذ رفضت نجية أن (تعطيه) شوشو ، ولو (دفع لها وزنها ذهباً) . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع (ليلي) إحدى النساء الحديثات ، وإن كانت فى الحق امرأة لا تخلو من نبل وأصالة . ومرض إبراهيم بالأقصر،

(١) وصف المازنى هذه المأساة فى أكثر من موضع منها ، وروايته لأحداثها فى « قصة حياة » - ص ٧٣ .

وعاده الشيخ (على) والدكتور ، وشفى ، وغادرته (ليلي) ، وعاد هو إلى القاهرة . وقد علمنا أن (شوشو) قد تزوجت من الدكتور محمود ، بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذى لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئاً^(١) .

هذه هى الخطوط الرئيسية لرواية (إبراهيم الكاتب) كما لخصها أحد أعلام النقد عند دراسته لها . . وإن كُنَّا قد أوردنا فى مطلع الحديث السطور التى وردت فى ختام رواية المازنى . . وهى سطور توحى بما بعدها ، وتركنا نتوقع بعض تلك الأحداث .

على أن لنا أن نرى فى هذه الرواية نواحي جمالية وإبداعية تعلو بها عن مجرد رواية لما تضمنته من أحداث . . فأحداثها ليست هى مدار الإبداع فيها ، فهى أحداث عادية ، لكنَّ فى الرواية - على طول صفحاتها - روحاً تشع منها ، فيها عمق ، فيها شعر ، فيها سخرية ، فيها صدق ، فيها عطف وحنان . . فيها - باختصار - كل المعانى الجميلة التى تأسر القارىء ، صاحب الإحساس الصادق ، الذى يبغى من القراءة غذاءً لوجدانه ، وإرضاءً لعاطفته ، وإشاعةً للبهجة فى نفسه ، وإذكاءً للفكر عنده . . ففى رواية إبراهيم الكاتب ذلك كله ، بل ما هو أكثر منه .

ولا نود أن نقف طويلاً عند الناقدين لها ، وبصفة خاصة أولئك الذين وصفوا بطلها بأنه (الهارب من الحياة) ، وغيرهم الذين عابوا على الكاتب إيمانه بـ (الثلاث)^(٢) فى الحب ، وهو فى رأيهم ليس مما يتفق مع الطبيعة السوية . . كما لا نقف عند أولئك الذين نسبوا إلى كاتبها سرقة (صفحات

(١) تلخيص القصة كما وردت فى فصل إبراهيم الكاتب من مؤلف د . محمد مندور : نماذج بشرية - ط ٣ - ص ١٨٩ .

(٢) قبل هذا لأنه كان يجب ثلاثاً من النساء فى وقت واحد . [انظر : إبراهيم الكاتب - ص ٣٠٢] .

بأكملها) من رواية سائين التى ترجمها المازنى نفسه تحت عنوان : (ابن الطبيعة) . . فكل تلك الأوجه من النقد - حتى وإن أصابت بعض الحق - لن تقلل من عمق هذا الأثر الإبداعي الذى سوف يبقى فى تاريخ الإنتاج العربى أثرًا من الآثار الباقية التى يزداد التقدير لها مع مرور الأيام . . والتى لا تفقد بريقها أو أصالتها برغم كل ما استجد - وما يستجد - من تيارات وموجات !

ولم تكن رواية (إبراهيم الثانى) هى التالية - تاريخيًا - لإبراهيم الكاتب ، فقد فصلت بينهما أعمال أخرى للمازنى . . لكن الكاتب هنا هو الذى أبى إلا أن يربط بين العاملين على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، فالبطل الذى تدور حوله أحداث الرواية الثانية هو نفسه (إبراهيم الكاتب) بعد أن تقدم به العمر ، واستقر به المقام ، وتزوج زوجته الثانية (تحية) التى جمعت بها حياة هادئة مستقرة ، ولكنه - قد صار فى العقد الخامس من عمره - « فكان أخوف ما يخاف أن يكون قد شيخ ، أو أشفى على الشيخوخة . . وكانت امرأته ذكية ، رحيمة أفق النفس ، بعيدة مطارح العين ، وكانت تتوخى أن تجدد نفسها له ، وتحرص على أن تحيطه بجو من الشباب ، ولا تفتأ تدعو من ذوات القربى أو من بنات المعارف الفتيات الناهدات واللاتى ما زلن فى عنفوان الشباب ، وكانت ترجو بهذا أن يجد بعلمها ما ينعشه وينشطه ، ويميط عنه أذى الإحساس بالشيخوخة المخوفة أو المتوهمة ، ولم تكن تخشى عليه الفتنة ، فقد كانت تعرفه رزينًا حكيمًا ، وصبيًا محتشمًا ، وكان يعلم أن امرأته تحبه - أو لا تزال تحبه - غير أنه يخشى أن يكون حبها له عادة . . فاشتاق أن تحبه غيرها ، واشتهى أن يسمع كلمات الحب والإعجاب من أخرى . . وعرف فتاة فى بيته - وبفضل امرأته - اختلط أمرها عليه ، فما كانت - فيما يرى - من الغريبات ، ولا كانت من ذوات تجربة ما ، وكانت متزنة ، ذات عين فاحصة ، ولكنها غير صارمة ، وكانت أحلى ما تكون

حين تبتسم ، وتتقارب جفونها حتى لتكاد تنطبق . وكانت على سكونها وهدوء مظهرها في كل حال لا يشك الناظر إليها في أنها زاخرة بالحياة الفوّارة . . . وما أسرع ما توادًا ، بل اثتلفا ، لا يدري كيف ؟ وصفا إليها ، وصفت إليه . وأنس بها وأنست به . . . » (١) .

وكانت تلك هي (ميمي) ممن اتصلت أسبابه بأسبابها . . . واستمرا في حوار متصل ، هو يردها عنه حينًا ، ويرخي لها أسباب الإقبال عليه أحيانًا أخرى . . . حتى إنه ليحدث نفسه بأن « ميمي لا تتطلع إلى شيء ، ولا تبغى إلا أن أكون معها . . . هكذا . . . ليس إلا . . . وما عرفتها ندمت أو قلقت ، أو عنيت بأن تمُدَّ عينها إلى الغد المحجوب ، وما عسى أن يكون حالها فيه . وإنى لأحاول أن أحملها على تدبير هذا الغد ، فتأبى إلا أن تصدق عنه وتعرض ، لا يأسا منه ، ولا مجازفةً ، بل إنها راضية قانعة ، وما أكثر ما قلت لها إنها تضيّع شبابها معي ، وأنها لتعيرني من حرارته ، ولكنها لا تستطيع أن ترد على شبابي بما تنفث في من حرارة شبابها . . . » .

ومع ذلك فلم تكن (ميمي) هي الأولى ، بل سبقتها (عائدة) ، وسبقتها (تحية) التي تزوجها ، وأنس إليها وأنست إليه . . . وإذا كانت حياته قد اتصلت مع (تحية) هينة لينة ، وإن لم تخل من متاعب ، فإن حكايته مع (عائدة) ما لبثت أن انتهت ، إذ وافتها منيتها وهي ما زالت في رَيِّق الشباب (٢) . . . ويصف كاتبنا هذه اللحظات فيقول :

« ووجم إبراهيم لما جاءه نعيها . فقالت له تحية وهي تربت له على كتفه : اسمع إنني لم أكلحك في هذا قط ، ولكني أقول لك الآن إنني آسفة ، آسفة من أجلها ، والموت حسم ، فأطو أنت الصفحة .

(١) من رواية المازني : إبراهيم الثاني - ص ٧ ، ٨ .

(٢) رَيِّق الشباب : أوله . [انظر : المعجم الوسيط - مادة « راق »] .

قال : ولكنها لم تكن صفحة . . . ليست صفحة في حياتي . . . هنا خطوك . إنها كانت كتابًا كاملاً ، ولكنه خُطِفَ من يدي ، وأنا ما زلت أجيل عيني في صفحاته الأولى . أوه أظن أنني أقول كلامًا سخيًّا ! لم يعد في رأسي عقل . كل ما أشعر به أو أدريه أنه لم يكن ثمَّ من بأس لو بقيت هذه السكينة . . . هذا الموت ثقيل . . . أكاد أرتاب في حكمة الحياة والموت . في كل شيء . . . لا . . . ينبغي أن أكفَّ عن التفكير في أي شيء اليوم .

ففهمت (تحية) - وعذرت - وكانت تعرف تلف أعصابه وما عانى في سنوات طويلات من عذاب المرض .

وما أكثر ما تفهم وتعذر المرأة الطيبة المخلصة الرحيمة ، ولعلها أجمل وأروع ما في الدنيا .

وبعد ذلك يقول : « ثم كانت ميمي . . . وهي طراز آخر من الأنوثة ، لا تشابه تحية ، ولا تُشاكل عائدة ، شبابها رِيَّان ، وجسمها بَص في نصاعة لون ، ووجهها كأنه يترقق فيه ماء الحياة من نضرة النعمة . . . رشوف ، عبقة ، لبقة ، لينة في منطقتها وعملها ، ناعمة في ملمسها ، مطواع ، لا كِبَر بها ولا تكلف ، تتجمع أنوثتها في عينيها الدعجاوين ، وتنطلق منها حين تبتسم فتضيّقان . لا تعرف قولة (لا) ولا تحسن أن تقول (نعم) ، ولكنها تحسن أن تفعلها ، أبرز صفاتها البساطة والقناعة ، فهي تأخذ الأمور مأخذًا سهلًا ، وتتناولها من قريب ، وتقنع بالميسور . . . » .

ومع ذلك ، فما لبث أن عمل إبراهيم على أن يمهد لميمي الزواج من (صادق) - قريبها الذي يحبها وإن كانت هي لا تبادله ذات الشعور - وعاد إلى تحية . . . التي ما فتر عن الحديث عنها على طول صفحات الرواية ، حتى وهو يتحدث عن سواها : عائدة أو ميمي . . . فكانت صفحة الختام هي هذه السطور :

« ودعا تحية فأقبلت واجفة القلب ، فابتدورها بقوله :

سنسافر فاستعدى .

فَرِيَعَتْ ، وتوهمت أن مكروهاً حاق بأحد من الأهل . ولمح آية الجزع والفرع في محياها ، ووخزته نفسه ، وهمست في أذنه : يا شيخ حرام عليك ، فتبسم وقال : إلى الشام .

فوضعت يدها على صدرها وتنهدت ، ثم سأله : الشام ؟ .

قال : نعم بأسرع ما نستطيع .

قالت : ولكن الشام ؟ هذا . . . كلا . ليس الآن .

قال : ماذا تعنين ؟ قلت إلى الشام سندهب .

فهيمت نفسه في أذنه معجبة به راضية عنه : هكذا يتكلم الرجل برافو . .

قالت : ولكنك غير فاهم ، ليست المسألة أنى لا أريد السفر ، فإنى أريده وأشتهيه ولكن . . . ولكن . . .

وتلعثمت ، واتقد وجهها كالجمرة ، وغضت من بصرها ، فدنا منها وأحاطها بذراعه وسألها بحنو : مالك ؟ .

قالت وهى مطرقة ، وشففتها تحتلج : إنى . . إنى . . أنا حامل .

فقال على البديهة ، وبغير تفكير ، وذهنه متجه إلى الحُجَّة لا إلى الخبر : كلام فارغ . . أليس في لبنان حوامل ؟ ثم تنبه فصاح بها : إيه ؟ ماذا تقولين ؟ .

فضحكت ما وسعها أن تضحك بعد أن أجرث لسانها بها كانت مستحبة كالعذراء من ذكره .

فانحنى عليها وقبلها ، وضَمَّها ضَمًّا خفيفًا ، وجلس وأجلسها على حجره ، ومسح لها شعرها بكفه ، وأسندها إلى صدره وقال :

أظن أن أمى يسرها هذا - لو أمكن أن تدرى .

قالت : فى الصباح نذهب إليها ونخبرها .

قال : ثم إلى الشام .

قالت : إذا شئت .

أغمض عينيه . وذهب يتصور أنه يوشك أن يصبح أبًا . وذهل حتى عن (تحية) على حجره ، فغمزته نفسه وهمست : لا تنس من فرحتك أن نكتب إلى ميمى .

فقال بضجر وصوت عال : كيف يمكن أن أنسى ؟ .

فاستغربت (تحية) وسأله : تنسى ؟ تنسى ماذا ؟ .

فتنبه ، وسخط على (نفسه) التى كادت توقعه فى ورطة ، قال : لا شئ . أحسبني كنت أفكر فى هذا . . كل جديد من الأمر يتطلب جديدًا من التفكير . .

فضحكت ونهضت من حجره ، وقالت وهى تسوى خصل شعرها : « هذا دأبك أبدًا . . لا يمكن أن تتغير . . » .

فحدق فى وجهها وقال : « بل أنا أتغير . . كل ساعة . . وقد تغيرت الآن . . منذ لحظة . . فلو أنى . . . » .

« ليس فى عينى . . . » .

ومالت عليه ولثمته : « ولا فى قلبى » .

ولعل الصورة لا تكتمل إلا إذا عدنا إلى الحديث عن الأم . . إنها مازالت

له هي الملاذ والمعاذ ، وظلت معه تقاسمه حياته وفكره ، وكانت لزوجته خير أم . . . ويصف هذه العلاقة بهذه السطور :

« وعاش إبراهيم مع (تحية) سنوات ، وفيها لها بالعين والقلب ، وكان يطوف ويعمل ويكد ، ويعود إلى البيت فيلقى إليها بما أفاد من مال ، وكان ما يكسب من الرزق يجيئه من هنا وهاهنا ، وبين بعضه والبعض الآخر فترات تطول وتقصّر ، ولكنه في جلته - وبفضل تدبير أمه ثم تحية - واف بالحاجة ، كافٍ لسر المظهر . وكانت أمه هي ربة بيته ، وظلت كذلك زمناً بعد زواجه ، فلما أنست من (تحية) الرشد ، وشامت من سيرتها الخير ، ألقت إليها بالزمام آمنة مطمئنة ، ولم تجشم نفسها حتى عناء الإيحاء والتوجيه ، ووكلت كل شيء إلى ذكائها وفطنتها وعقلها وحكمتها . . . وكانت كبيرة السن ، ضعيفة القلب ، فأتيحت لها الراحة التي تعذرت قبل زواجه ، ووسعها أن تقول لتحية يوماً : الآن أستطيع أن أودعكما وأنا سعيدة قريرة العين ، فإنك كنز ظفر به ، ووقع عليه إبراهيم ، وأرجو أن يكون رأيك أنه أهل له ، على أن في يدك أن تجعله كذلك ، وكما تحبين ، والرجال يحبون أن يكونوا سادة ، ولكنهم يكونون بين يدي المرأة أطفالاً رُضْعاً .

وجاء يومٌ آذنت بفراقها ، وكانت (تحية) وحدها في البيت ، فامتنع صبرها - على فرط تجلدها - لهذا التوديع الذي كانت تعلم أنه لابد آتٍ ، وانحدرت العبرات ، واضطربت في أحشائها نار أليمة ! . . .

صور عديدة حُشدت بها الرواية ، التي ضمت أحاديث عن هذه العلاقات التي تعددت ، لتعود الحياة من بُعد إلى سيرتها الأولى : زوجان يواجهان الحياة وهما يستقبلان الذرية الصالحة التي سوف يتغير معها طعم الحياة بكل ما تحمل من مشاغل وهموم ومشاكل . . . !

وهذه الصفحات التي تطالعنا بها رواية (إبراهيم الثاني) تثير نفس التساؤلات :

- إذا كان إبراهيم الثاني هو (إبراهيم الكاتب) فهل هما إبراهيم المازني ؟
- وإذا كان الأمر كذلك . . . فهل نرى كاتبنا يتحدث عن تجارب شخصية ؟

- وهل ترى هذه الأحداث مرت به حقيقة وواقعاً ؟

ولا نجد داعياً لمحاولة البحث عن الإجابات الصادقة عن تلك الأسئلة . . . وقد يكفيننا في هذا المقام أن نقرر أن المازني في روايته كان يستوحى ولا شك ما مرَّ به من أحداث ، ويستلهم ما عاشه من تجارب ، وإن كان ينقل - في بعض الأحيان - عن واقع عرفه وعاشه - إلا أن لنا أن نضيف أنه إنما يفعل ذلك كله بنظرة الفنان ، وروح الشاعر ، وقلم الروائي ، وهو من ثم إذ يروي ما يروي ، فهو ليس (شاهد رؤية) يدلي بشهادته ، وإنما هو كاتب يستلهم الواقع ، ويستوحى التجارب ، ويستمد من ذلك كله زاداً يلهمه ما يبدع قلمه من صفحات ، ويمده بما يروي من أحداث ، ويرسم من صور ، دون أن يقيده سوى دواعي الفن والإبداع ، وعلى ذلك ، فإن كانت أحداث روايته فيها من الواقع ، فإنها ليست جميعها من الواقع ، ففيها من نوازع الفن ، ومن ضرورات الإبداع ، ومن موجبات حسن الرواية ، وجمال التصوير - بل مسaire المنطق في كثير من الأحيان - ما يبعد بها عن الواقع كثيراً ، وإن كان ارتباطها به يظل ظاهر الأثر ، ذا تأثير ما ، يقوى حيناً ويضعف في معظم الأحيان . . . ومن هنا فليس لنا أن نزعج أننا يمكننا أن نضع أيدينا على الحقائق الثابتة في حياة المازني العاطفية من واقع دراستنا لروايته - أو رواياته جميعاً - فذلك أمر لا يمكن الوصول فيه إلى قول فصل ، وأقصى ما يقال إنها تعطى ملامح من تلك الحياة ، ولا تزيد على أن تومئ إلى بعض أحداثها مغلفة - أو مزودة - بإضافات تخفى الحقيقة ، بل تكاد تزور الواقع .

ومن هنا فليس لنا أن ندين سلوك شخصياتها إذا ما أردنا أن ندين مؤلفها، وإنما كل ما لنا هو أن ننظر إلى (الشخصية) موضوع الدراسة في إطار الفن نفسه ، وليس في إطار (حياة المازني) ، اللهم إلا إذا قلنا إن فن المازني فن متميز ، فهو فن (مازني) خالص ، له معايير الخاصة به ، وسماته التي ينفرد بها . . وبهذا القول وحده نخلص إلى أننا بإزاء أعمال فنية متميزة . . وواجبنا أن نعود إليها دارسين محللين ، على أن نكون منصفين غير متحيزين . . وبهذه الروح وحدها سوف ننصف أديبنا الراحل دون أن نبخسه حقه ، ودون أن نحصره في إطار تيارات مستحدثة ، وكأنما الأمر يقتضي أن كل مستحدث لا يقوم إلا على أنقاض ما سبقه . . وهذه غاية الظلم - والجهل أيضًا .

المازني وعالم القصة القصيرة :

وللمازني العديد من مجموعات القصص القصيرة . وقد نُشرت جميعها في العديد من الصحف والمجلات التي كان يكتب فيها . . وبعض هذه المجموعات لا تضم إلا قصصًا قصيرة ، وإن امتزجت بالصور القلمية ومنها :

- صندوق الدنيا .

- خيوط العنكبوت .

- في الطريق .

- ع الماشي .

وبعضها الآخر ورد ضمن كتاب أو أكثر تضمّن مقالات أخرى في مواضيع شتى ، مثل كتابه (قبض الريح) الذي ضم إلى جانب العديد من المقالات النقدية والاجتماعية ، بعض الصور القلمية والقصص القصيرة . .

وكذلك كتابه (من النافذة) الذي وإن احتوى في فصوله الأولى على قصة - اعتبرناها رواية - فإن سائر فصوله إنما هي مقالات اجتماعية ، وصور قلمية .

وللمازني كذلك كتاب سبق نشره ، وهو (الرحلة إلى الحجاز) ، وله كتاب - وربما أكثر من كتاب - عن رحلتيه إلى العراق وإلى الشام ، وإن كنا لم يتح لنا الاطلاع عليهما ، فهما لم ينشرا بعد ، وإن كنا نأمل أن يأتي قريبًا اليوم الذي يظهر فيه هذان الكتابان - أو أحدهما على الأقل - إلى عالم النور .

وسوف نلقى فيما يلي نظرة على أسلوب المازني القصصي لتتبع ذلك بعرض لبعض قصصه القصيرة .

نظرة إلى عالم المازني القصصي :

وربما جاز لنا أن نقرر أن قصص المازني القصيرة تجمعها عدة سمات . . لا نقول إنها تظهر بنفس الدرجة في كل قصصه ، ولكنك لا تخطئها في معظم قصصه :

وأول هذه السمات حرصه على تطعيم القصة بالعبارات المرححة حينًا ، والتعبيرات الساخرة أحيانًا أخرى ، فأسلوبه بارز على طول قصصه ، دالّ عليه ، يميز كتاباته ، حتى ليتمكن القارئ أن يتعرف عليها في يسر وسهولة .

ومن هذه السمات أيضًا تخيره للجوانب اللافتة للنظر من الحدث ، واختياره للحظات التي يتعرض لها ويعرضها . . وهو دائمًا اختيار موفق ومحجب في نفس الوقت .

ومنها أيضًا بسطه في الحكاية ورواية الأحداث ، حتى وكأنه يتحدث إلى صديق يحكي له عن أمور مرت به ، ولكن روايته تأتي على نحو جذاب

وَأَسِيرٌ لَا يَدْعُ لَكَ فُرْصَةً لِلتَّمَلُّمِ ، أَوْ إِرْجَاءَ إِكْمَالِ قِرَاءَةِ الْقِصَّةِ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ .

وهو في قصصه لا يلتزم دائماً بالقواعد التي وضعها النقاد لمسار (القصة القصيرة) ومع ذلك فيخيل لي أنه وضع لنفسه قواعد أخرى التزم بها بحيث لا يقدم إلا قصصاً مشوقة ، مصاغة على نحو لافت وجذاب ، وتتنامى أحداثها على نحو تلقائي لتصل في النهاية إلى خاتمة ليس من المهم دائماً ألا تكون متوقعة .

وعلى ذلك فإن لنا أن نرى أن نهجه القصصي كان متميزاً ومتفرداً ومبتدعاً في نفس الوقت ، ونادراً ما يبلغ حد الإملال . . فهو دائماً يكتفى باللقطات البارزة - والموحية في نفس الوقت - والتي تتكامل فيما بينها لترسم لنا الصورة التي أراد تقديمها وعرضها .

وقد تكون قصصه لا تحتوى إلا أحداثاً عادية - أو كالعادية - فليس فيها ما يفجؤك ، أو يروعك ، وليس فيها ما يثير أو يلهب الأحاسيس ، ولكنها - ولا شك - تحتوى على ما يسعد القارئ ويمتعه .

وهو - بعد - لا ينقل إلا من الحياة ، ولا يرسم إلا صوراً من الواقع ، ولكنه الواقع المتقن بعناية ، والمختار على نحو فني ، يكفل أن يكون جذاباً وجاذباً .

وهو - قبل ذلك كله - القاص الرائد ، فما سبقه من أعمال في اللغة العربية لا تعدو أن تكون محاولات لم يكتمل معظمها .

وواقعته ليست هي الواقعية التي ترهق قارئها بنقل العديد من التفاصيل دون أن تفلت شيئاً ، وكأنها هم الكاتب أن ينقل صورة فوتوغرافية للواقع الذي يصوره . . فالمأزني على العكس من ذلك ، يقتصر في رواية التفاصيل على ما يخدم فكرته ، ويكمل ملامح الصورة التي يهدف إلى تقديمها .

وقصصه - في الغالب - لا تشغل كثيراً بأمور الفكر ، أو نواحي الفلسفة ، بل تحرص على أن تتناول من الحياة جوانبها السهلة - أو على الأقل المعروفة للناس - وكذلك تبعد عن الشذوذ أو الخروج عن المألوف - بصورة لافتة - ومع ذلك فلا يمكن أن تقدم في كل قصة فكرة طريفة ، أو نظرة صائبة ، أو رأياً حكيماً . . أو على الأقل : صورة موحية ومعبرة في نفس الوقت !

وكثيراً ما يحرص في قصصه على استعمال ضمير المتكلم ، حتى ليخيل لي القارئ أنه هو بطل كل تلك الأحداث ، وصاحب ما يحكى من الروايات ، ولا نشك في أن كثيراً مما كتب مستمد من تجاربه ، ومع ذلك فليس لنا أن نقرر أن ما حكاه - كله - قد وقع له كما رواه ، وإلا كنا بصدد تاريخ ، وهو ما حرص المأزني على الابتعاد عنه . . إن ما قدمه - حتى عن نفسه - إنما قدم بصورة فنية ، وعلى نحو فيه من الإبداع الكثير ، ومن ثم فهو يخدعنا إذا توهمنا أننا نطالع أحداث حياته ، وإن كنا لا نشك أنه ما كتب إلا مستوحياً تلك الأحداث .

والشيء اللافت . . حرصه على أن يصف بطلات قصصه وصفاً لا يفلت شيئاً من ملامح الوجه ، أو نظرات العيون ، أو دقائق القَد ، بل لا يهمل حركة اليد ، أو تشنئ الخصر ، أو تموج الأعطاف ، فإذا ما رَوَى الحديث الذي يدور لم يفت أن يتحدث عن لهجة الصوت ، ونغمة الحديث ، ووقع الكلمات على الأذن - أو في القلب - وقد يجاوز في ذلك الحد المعقول ، ولكن صورته تأتي في الغالب - مقبولة وطريفة لا يُصاب قارئها بأى ملل .

ولعل خير ما يبرز ذلك كله ويوضحه هي هذه السطور التي نقتطفها من بعض إبداعات المأزني .

وسوف يكون من المتعذر - بالطبع - أن نتبع قصصه القصيرة لنعرضها ، وليس مرجع ذلك فقط إلى كثرتها وتعددتها ، وإنما مرجع الصعوبة في المقام

الأول هو أن تلخيص القصة القصيرة لن يكون مجدياً ، ولا ممتعاً ، ولا كاشفاً عن أعماقها ، فالقصة القصيرة - في رأيي - عمل متكامل لا يمكن إدراك أبعاده إلا بقراءته كله . . فمثل هذه القراءة هي التي تعطى القارئ الإحساس بقيمة العمل ، وتتيح له الفرصة للتعرف عليه ، ولتذوقه . . على أن ذلك لن يحول دون الإشارة إلى بعض هذه الأعمال ، واقتطاف بعض فقرات منها ، ولا نزع أن ما نشير إليه هو أفضل إبداعات المازني ، بل جميعها مما يدخل ضمن مستواه المؤلف .

ومن مجموعاته القصصية : خيوط العنكبوت ، ويفهم من إهدائها أنها ظهرت في أبريل سنة ١٩٣٥ م ، أي منذ أكثر من ستين عامًا .

ومن قصص هذه المجموعة قصة تحمل عنوان (التدخين) ، ومن هذه القصة ننقل ما يلي :

« . . كنت مرة أسير في الصباح على جسر قصر النيل ، كان ترام الجزيرة ينتهي عنده - في الجزيرة - وكنت يومئذ مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية ، فأردت أن أدرك الترام فعدوت ، فنهجتُ وانقطع قلبي ، واضطرت أن أقف لأستريح ، وشقَّ عليَّ أني في شبابي لا أستطيع أن أجرى مائة خطوة ، واغرورقت عيناى بالدموع ، فأخرجت عليه السجائر وعلبة الكبريت وألقيتهما في النيل - للسماك ، وتوكلت على الله ، واستأنفت السير .

وظللت يومى هذا فرحاً مغتبطاً بجدة العزم وصرامة الإرادة .

وما لقيتُ أحدًا من معارفى أو حتى ممن لا أعرف إلا أخبرته أني كففت عن التدخين ، حتى عامل الترام قلت له وأنا أناوله القرش :

اليوم رميت السجاير في النيل . . يا أخى ماذا كنت صانعاً غير ذلك ؟ تصور شاباً مثلى يجرى مائة متر فتقطع أنفاسه ! هل تدخن أنت ؟

قال : إى والله مع الأسف !

قلت : لا لا . . هذه جناية على نفسك . . روح ارم هذا الدخان في النيل .

قال : لا أستطيع .

قلت : كيف لا تستطيع ؟ ألا ترانى أمامك ؟ ألم أستطع ؟ لماذا لا تكون مثلى ؟

قال : كم يوماً لك ؟

قلت وأنا أحك رأسى : أ ربع ساعة .

فضحك وقال : أوه ! آه ! ربع ساعة ؟ ابقْ قابلى .

قلت : كلام فارغ ، انصرفت عنه نادماً على الكلام معه .

ولم أشعر فى ذلك اليوم بالرغبة فى التدخين ، لأنى - كما أسلفت - كنت فرحاً بنفسى ، مسروراً بإمضاء العزم ، وفى اليوم الثانى أصبحت مكتئباً ، كاسف البال ، مطأطئ الرأس ، أجّر رجلى إذ أمشى ، ولم أكل شيئاً قبل الخروج كما كانت عادتي أن أفعل ، وشعرت بعطف عجيب على نفسى ، وعلى الدنيا كلها ، ورقة فى قلبى لا عهد لى بها ، فما سألتنى أحد فى ذلك اليوم شيئاً إلاّ أسرع فى إجابته إليه ، ولقينى متسوّل ويده مبسوطة ، فوضعت فيها نصف ريال ، وطلب زميل أن يستعير منى كتاباً فوعدته بأن أحمل إليه مكتبتي كلها فى الغد ، ودخلت فى المساء مقهًى فألفيت صديقاً لى يشرب رطلاً - فما يقلّ عن ذلك - من الجعة ، فدفعت عنه الثمن ، فأغراه هذا الجود بأن يسرّ لى أن يكون مسروراً شاكراً إذا أقرضته جنيهاً يرده فى أول الشهر الجديد ، فأشرق وجهى وقلت :

- جنيه ؟ جنيه واحد ؟ هذا ظنك بأخيك ؟ يا سبحان الله !

قال : أتظن أنه كثير عليك ؟ إذن اجعله نصف جنيه . . وسأرده والله ! .
فقلت : لا . . لا . . إني أستقله ولا أستكثره ، لقد كنت أنتظر منك
أن تكون أحسن بي ظناً من أن تكتفى بجنيه .

قال - وقد لمع في عينيه نور البشر - :

نقول جنيه ونصف ؟ . . أو . . ربما استطعت أن تستغنى عن اثنين
مثلاً . . ؟ .

قلت : هل يكفيك خمسة ؟ أو عسى أن تكون حاجتك أشد . . فلنقل
عشرة جنيهات . . قانع ؟ حسن إذن ! سأسبقك إلى البيت ، فمرّ بي
لأعطيها .

وخرجت أمشي عائداً إلى البيت ، فقابلت صديقاً دعوته إلى العشاء في
منزلي أيضاً ، فلما صرّث في غرفتي عاودتني الكآبة ، وثقل على الإحساس
لأن كل شيء ينقصني ، وضاق صدري ، وساورتني هموم غامضة ،
فجعلت أتمشى وأنا مضطرب ، وكانت حركاتي جادة ، عنيفة ، ولمحت
كرسيّاً في زاوية ، فسرّث إليه ، فجعلت أركله حتى قذفت به خارج الغرفة ،
ودخلت الخادمة علىّ تسألني ماذا صنع الكرسي ؟ وبأى شيء استحق هذا
منى ؟ فقبضت على عنقها ، وكدت أخنقها ، فلو أنها تخلصت - لا أدري
كيف ؟ - لما تركتها إلا ميتة ، ولم تبق في نفسي ذرّة من العطف على أحد من
خلق الله ، و تمنيت كما تمنى نيرون - أم ترى غيره الذي تمنى ذلك ؟ - أن يكون
لأبناء آدم جميعاً عنق واحد ، فأضربه بالسيف ، ونظرت إلى الكتب على
رفوفها فعبست ، وأقسمت لأودبن ذلك الذي اجترأ أن يستعير أحدها .

وصفق في فناء البيت صاحبي الذي وجدته في البار ، ووعدته أن أقرضه

- أو أهبه ، فقد كان المؤدى واحداً - عشر جنيهات ، فأشرفت عليه من
النافذة وسألته عما يريد . فقال :

هاهنا الأمانة يا بطل ، وأكثر الله من أمثالك !

قلت ، وأنا أتميز من الغيظ : أى أمانة يا حمار ؟

فقال ، ووجهه إلى فوق ، ويسراه تسند طربوشه من الخلف لثلا يقع :
- الله يسامحك ، طيب ، هاهنا بقى .

قلت : ألا تنوى أن تخرج ؟

قال : لا بأس . إذا كنت تريد أن تنزل فازم الأمانة في منديل .

فتناولت كرسيّاً قريباً وقذفته به ، فخرج يعدو وهو يسب ويلعن .

وبعد برهة دخل صاحبي الثاني الذي دعوته إلى العشاء ، وصفق
كالأول ، فأطللت من النافذة ، وفي عزمي أن ألقى على رأسه زهرية
فأحطتهما معاً ، ولكن عيني أخذت سيجارة في فمه ، فارتدت عن النافذة ،
وهبطت إليه كالحجر الساقط ، ودفعت يدي فانتزعت السيجارة من فمه ،
وارتميت على كرسي ، وقعدت أدخن ، فنظر إلى مبهوتاً ، ودنا مني ، وهمّ بأن
يقول شيئاً ، فرفعت يدي وقلت :

« هس . . ليس الآن . . انتظر لحظة حتى أدخن هذه السيجارة . . »

وجعلت نفسي تعود إلى شيئاً فشيئاً ، وأساير وجهي تنبسط ، وفرغت
السيجارة فقلت : - هاهنا أخرى . . هاهنا بالعجل .

فلما دخنت نصفها ابتسمت راضياً عن نفسي ، وعن الدنيا ، ونهضت
أقول :

- أهلاً وسهلاً . . يا ألف مرحب . . تفضل .

ومعارف عديدة ليس لاستيعابها ، بل ليس لمجرد الاقتراب منها من سبيل ،
بالنسبة لنا على الأقل ! فذلك - وأيم الحق - مهمة شاقة ، لا تقوى عليها
طاقاتنا المحدودة ، ولا معارفنا القاصرة !!

وأقر وأعترف أنني حاولت كثيراً فما أفلحت ، وما اقتربت ، ولم تنفتح لي
حتى ولا طاقة تسمح لي بالدخول إلى هذه العوالم الجديدة من الأفكار والآراء
.. والنظريات .. !!

والمازنى غريب عن هذه العوالم هو الآخر . . فهو كاتب تقليدى لم يُحط
بها جدّ من نظريات حديثة في الرواية والقصة القصيرة . . بل لم يعرفها ،
وكأننى به وأنا أحدثه عنها يقول : يا أخى دعنا من هذه النظريات ، ولا
تصدّع بها رؤوسنا ، وأمامك الحياة حلوة جميلة ، فاغتمها وتملّها ، واقرأها ،
فهى كتاب مفتوح أمامك ، وما عليك إلا أن تطالع صفحاته ، وسوف تبدو
لك سطره مفهومة متى خلّصت نفسك من إسار النظريات الجامدة ،
فخير نظرية للحياة فى يقينى هى أن تحيا الحياة كما هى ، وأن تأخذها كما
خلقها البارئ يسيرة وبسيطة . . ومن المؤكد أنك متى أخذت الأمور على
هذا النحو المبسط فسوف تسعد نفسك وأهلك ، وتبعد بنفسك عن عوالم
معقده لا جدوى من الدخول إليها ، ولا فائدة ترجى من الانشغال بها فيها
من أمور معقدة متراكبة ، تضيق معها بهجة الحياة ، ويختفى بسببها جمال
الوجود . . وما أحرانا أن نبحت عن البهجة ، ونحتفى بالجمال دون أن نعقد
الأمور ، أو نتوه فى ضباب الفلسفات والنظريات . . !!

المازنى والصور القلمية :

وهذه الصور التى يجيد المازنى رسمها وتقديمها للقارئ تكاد تنطق
بملاحم الصورة ، وتحدث بلسان صاحب الصورة ، وتجسد الحدث

وصعقت الخادم المدعورة ، وفى ظنها أتى سابع بطنها على الأقل ،
ودخلت على حذر ، غير أنها أبصرتنى أضحك وسمعتنى أمزح ،
فاطمأنت ، وناولتها ريبالاً ، وقلت :

هاتِ سجائر . . هاتِ به كله . . حالاً . .

وهكذا يرسم المازنى صورة لأثر السجارة ، وما تسببه محاولات الإقلاع
عن التدخين من انعكاسات نفسية تبدو مظاهرها فى كل تصرفات من يحاول
ترك تلك العادة ، ولا ندعى أنه يتحدث عن تجربته الشخصية ، ولكنه كان
يستوحى ولا شك بعض تجاربه فى هذا الصدد ويصوغها هذه الصياغة
الموفقة التى تجمع بين حُسن العرض ، وتسلسل الأحداث ، وعمق الفكاهة
فى ذات الوقت ، وهو يرسم صورة حية ، نابضة ، معبرة ، ومحبة لا يمكن
لمن يقرأها أن ينساها ، أو تغيب عن ذاكرته ، وبصفة خاصة إذا كان ممن
تأصلت فيهم عادة التدخين . . !

ونجد أنفسنا مضطرين إلى الاقتصار على هذه المقتطفات بحسبانها تعطى
مثالاً لما أردنا إبرازه ، لأننا لو ذهبنا نتبع كل قصصه لاضطررنا إلى نقلها
جميعاً ، ولكننا نختم حديثنا عن قصصه بأن القارئ يشعر بأن المازنى لا
يفتعل هذه القصص ، إنما هو يسح بها سحاً (كما قيل بالنسبة لقدرته
الشعرية) . . فهى تصدر عنه فى يسر وبساطة وتلقائية بلا أدنى افتعال ،
ولا تلفيق ، بل كأنه يروى عن واقع عاشه ، وحوادث مرت به . . هذا إلى
فنية الرواية ، وحسن الاختيار ، وطبيعة الحوار .

نقول هذا ، وأمامنا - ويتردد على مسامعنا - ما يسود الساحة من
اتجاهات حديثة فى القصة القصيرة . . وكيف ينبغى أن تُصاغ ؟ وكيف
يكون التعبير فيها ؟ وما هى الموضوعات التى ينبغى أن تتجه إليها ؟ إلى آخر
هذه الاتجاهات المستحدثة التى تقوم على نظريات تحتاج إلى خبرات وجهود

والمعنى على نحو واضح الدلالة ، معبراً أصدق تعبير ، وبأجلى بيان ، وبكلمات يسيرة بسيطة ، لكنها ناطقة . . وليست هذه الصور بمقتصرة على كتابه (صندوق الدنيا) ، بل إنك تجدها منبثة في كل كتاباته . لقد جمع بعض الناشرين عددًا من المقالات التى كتبها المازنى وأعادوا نشرها - بعد وفاته بفترة طويلة - تحت عنوان : (سبيل الحياة) . وإنك لتجد فى هذا الكتاب - كما هو الشأن فى سائر كتب المازنى - العديد من هذه الصور القلمية اللافتة .

ولنقرأ معًا هذه السطور التى كتبها المازنى تحت عنوان : (بلدتى القاهرة) ، حيث يتحدث فيها عن بعض ذكرياته على نحو يجمع بين الحديث الشخصى ، والحديث الموضوعى فى الوقت نفسه .

بلدتى القاهرة

« كان ينبغى أن تكون بلدة (كوم مازن) - مركز تلا ، على ما أظن ، من أعمال المنوفية - مسقط رأسى . فإن فيها أهلى وعشيرتى . . ولكن المقادير أتت بخلاف ذلك . فلا رأسى سقط فى (كوم مازن) ، ولا كتب لى قط أن أزورها أو ألمَّ بها .

و شاءت إرادة الله - لحكمة ولا شك - أن أكون قاهرىًّا ، مولدًا ، ونشأةً ، وإقامةً ، وأنا أطوف ما أطوف ثم آوى إلى القاهرة ، ولا يخطر لى أن هذه البلدة - الطيبة على ما سمعت - التى نزل فيها أجدادى ونسبوا إليهم ، وكنت أظن لفظ (كوم) محرفًا عن (قوم) ، ولكن الدكتور زكى مبارك - وهو أدرى - يقول إن الصواب (الكوم) بالكاف ، وأنه لا تحريف هناك ، لأن أهل القرى التى تقع على النيل ، كانوا يؤثرون الأرض المرتفعة حتى لا يغمرها الماء فى موسم الفيضان .

والقاهرة التى عرفتھا - أو قل الرقعة التى عرفتھا منها - فى صدر حياتى ، شىء مختلف جدًّا عن هذه القاهرة الحديثة التى أشابتنى . . والرقعة التى أعنيها هى التى لا تزال معروفة بأسمائها ، وإن كانت معالمها القديمة قد غمى عليها الزمن ، وهى تشمل أحياء الجمالية ، والأزهر ، والسكة الجديدة ، وغيرها مما يتفرع عليها . . .

وكان الترام قد ظهر فى قلب المدينة ، ولكنى لم أره إلا بعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائى ، ودخلت المدرسة التوفيقية الثانوية - أقول لم أره قبل ذلك ، ويحسن أن أضيف أنى لم أركبه إلا بعد ذلك بسنوات ، لا لأنهم خوفونى منه - وقد حاولوا تخويفى فعلاً - بل لأننا كنا افتقرنا بعد موت أبى ، واستطاع قريب لى أن يحصل لى على (أبونيه) مجانى لعربات (سوارس) ، وهى مركبات طويلة ضيقة تتسع لعشرة ركاب أو خمسة عشر ، ويجرها بغلان أو ثلاثة بغال ، وتستطيع أن تسبقها وأنت راجل !

وكانت الحمير والبغال ، و (عربات الكارو) التى لا تزال لها بقية لا يستهان بها ، هى وسائل النقل والتنقل . فأما البغال فكان يركبها (الذوات) والموسرون من طلاب العلم فى الأزهر .

وأما الحمير فيتخذها (أولاد البلد) وبعض أهل الوجاهة . وكانوا يعنون بتدريسيها ، ويحرصون على أن يبدو الحمار فى حفل من الزينة ، فالسرج بديع الفرش ، واللجام مُحَلَّى بالفضة . فإذا كان يوم الأحد - وهو يوم الزيارة الأسبوعية لمسجد السيدة نفيسة ، أو يوم الخميس ، وهو يوم زيارة (المحمدى) بالعباسية - لبس أصحاب الحمير أفخر ما عندهم من الثياب الحريرية ، وامتطوا هذه الحمير المضمرة المحلاة ، وخرجوا فى موكب باهر يتسابقون ، ويعرضون مزايا دوابهم ، ونقف نحن الصغار على جانبى الطريق نتفرج ، ونعجب ، ونتمنى على الله أن يرزقنا حميرًا كهذه .

وكانت الحارات الواسعة - نسبياً - ملعبنا نحن الصغار . وكنا نعرف ونزاول من الألعاب أربعة ضروب : فأما الصغار جدًّا فيلعبون (البلي) - وهى كرات صغيرة فى حجم الفولة إلا أنها مستديرة - وأما الأوساط فيلعبون (النطة) ، وهى القفز من فوق أحدهم وهو منحني ، وأما الكبار فيلعبون الكرة أو يتسابقون ، وكانت الكرة هى (كرة الشراب) ، أما الكرة (الأمبوبة) أى المنفوخة ، فما كانت لنا قدرة على اقتنائها ، لأن (مصروف) الواحد منا كان لا يزيد على خمسة ملاليم ، وكانت كافية للرب والحمص والفول السودانى ، ولم تكن قد سمعنا فى ذلك الزمان بالشيكولاتة !

وكان لكل حى (فتواته) ، وكل جماعة من الفتوات تهاجم كل جماعة أخرى ، أو تتأثر لنفسها ، وكنا نحن الصغار نستطيع أن نعرف سلفاً أبناء الغارات المنوية ، فنحذر فتوات حيتنا ، ونخرج لتفريج ، أو نتفريج من النوافذ ، على العصي وهى تهوى على الرؤوس ، ونشترك فى المعركة (بالرايقة) من النوافذ ، والجريء منا ينزل إلى الشارع ويخوض القتال ، على ألا يصيب إلا خصوم حيتيه .

على أن حياة الصغار لم تكن كلها لهواً ، فقد كنا نصلى الفجر فى مسجد الحسين ، ونقيم الصلاة فى مواقيتها فى البيت ، ونحضر الأذكار ، ونحفظ الأوردة ، ونذكر مع الذاكرين . وفى الصيف - فى الإجازة المدرسية - يرسلنا أهلنا إلى (الكتاب) فى الأزهر لنحفظ القرآن الكريم .

وكانت على بعضنا واجبات عجيبة ، فكنت أنا - مثلاً - مكلفاً أن أعلف لجدى حماره ، وكان - جدى لا الحمار - ضعيف النظر ، فكنا نجىء له بالحمار مسرجاً ملجماً فيركبه ويتوكل على الله ، ويخرج من جيب القفطان (التغيير) أو الملمزة ويدنيه من وجهه ويقرأ ، حتى يبلغ به الحمار باب (المزينين) - وهو أحد أبواب الأزهر - فيقف ، فيعرف جدى أنه وصل ،

فيترجل ، ويترك الحمار لمن يُعنى به . ويلقى درسه أو دروسه ثم يعود كما جاء!

فحدث ذات يوم أنى أهملت إطعام الحمار ، فجاء ، فلما ركبته جدى لم يذهب به إلى الأزهر ، بل كَرَّ به راجعاً إلى الإسطبل ، فلما ترجل جدى لم يجد ما ألف ، ولم يدر أين هو ؟ فما دخل الإسطبل قط !

وقد ضربت فى ذلك اليوم علقة - لا من جدى - فقد كان أحنى على من أن يضربنى - بل من أخى الأكبر رحمه الله !

هذه هى القاهرة كما عرفتھا فى حدائى ، وهذه صورة مجملتها ، وموجزة ناقصة للحياة فيها . أما القاهرة الحديثة فلا حاجة بى إلى وصفها ، لأن كل قارئ يراها ويعرفها»^(١).

ففى هذه السطور رسم المازنى صورة للقاهرة التى عرفها - وجاءت الصورة ناطقة مُعَبِّرة ، لا تزdan فقط بالمعلومات الطريفة ، وما تبرزه من ملامح قد تخفى على أعين الكثيرين ، ولكنها تزdan أيضاً بتلك الروح الفكهة الساخرة التى تعبر عن القاهريين - أولاد البلد - أصدق تعبير ، وكأننى بالمازنى يقول : هأنذا أحد أولاد البلد أتحدث بلهجة أولاد البلد عن بلدتى القاهرة . . وما أحسبني تجاوزت الحقيقة أو أخفيت جانباً من الجوانب ، بل حرصت على أن أرسم صورة ناطقة ترجع بكم إلى ذلك الزمن الذى أتحدث عنه ، فتبرز أمامكم ملامحه ، وتحدثكم عنه حديث العارف به ، الذى عاش أيامه وبلا حُلُوها ومُرَّها .

تلك هى سمة المازنى فى كل كتاباته وصوره القلمية . . وربما كان (يحبى حقى) يقاربه فى ذلك - فى بعض لوحاته القلمية - غير أن لنا أن نلمح الفارق بين الاثنين . فأنت تحس مع المازنى أنك مع شخص يأخذ الأمور

(١) كتابه : سبيل الحياة - الدار القومية للطباعة والنشر - ص ١٣

- فما يبدو - باستهانة ، إلا أنها استهانة الواعى الذى لا يفوت عليه أمر ، وهو وإن كان يستهين ببعض الأمور فإن هدفه هو التهوين والتخفيف عن الآخرين ، فما تلمح فى سطره قسوة ، ولا تطالع فى صورته ما يجرح أو يؤذى . . بل هو يقدم الصورة وكأنه يقول : هذه هى الحقيقة ، علينا أن نسلم بها ، وأن نفيد منها ، وأن نعائشها ، ونتعامل معها ، ونفيد مما تقدم لنا فى ذات الوقت من فكاكة أو متعة أو سرور .

أما يحى حقى فليست له سرعة المازنى فى التقاط الملامح ، ولا نظرته الشاملة التى لا تكاد تفلت ملمحاً ، ولا سرعة انتقاله من خصوصية الصورة إلى عمومية المعنى مثلاً هو الأمر عند المازنى ، إذ يقف يحى حقى وكأنه يرسم لوحة لشخصية محددة ، معالمها واضحة ، وسماها معروفة ، وكل همه أن يقيمها فى صورة تلفت النظر ، وتبقى فى الخاطر . وليس من شك فى أن له مقدرة على تقديم صور تنبض بالفكاهة ، وتقطر سخرية ، ولكن ذلك إنما يأتى على مهل وروية ، وبعد تفكير وتعديل ، وصياغة وإعادة صياغة ، حتى يصل إلى الصيغة التى يرتضيها ، والصورة التى يرضى عنها ، فما يقبل أن يورد كلمة زائدة ، أو معنى مكرراً ، فلكل حرف موضعه ، ولكل كلمة ضرورتها ، وهو فى ذلك يخالف المازنى الذى رأيناه يمضى مع قلمه تاركاً له كامل حريته فى القول ، بل كثيراً ما يستطرد معه ، ولكنه مع ذلك لا يهمل ما يريد قوله ، والإبانة عنه . . وها نحن إزاء أسلوبين - ومنهجين - وإن كانا مختلفين فإنهما فى النهاية يعرضان صوراً قلمية فيها فن ، وفيها فكاهة وطرافة ومتعة . . وهى صور وإن اجتمعت فى هذه السمات فإنه لا يمكن الخلط بين ما يخص كلاً من صاحبيها وما يخص الآخر ، فلكل منهما طابعه الذى يطبع إنتاجه ، ويميز فكره ، وهو طابع متميز يدل على صاحبه فى يسر وبساطة ، حتى يمكن القول بأنه يندر أن يختلط إنتاج لأحدهما بإنتاج لآخر

كاتب آخر بحال من الأحوال . . وتلك هى أسمى سمات التفرد والتميز فى ذات الوقت .

المازنى وكتاباته النقدية :

ربما كان الوجه الناقد هو أول وجه طالعنا به المازنى فى حياته الحافلة المنتجة المثمرة ، فما كانت دراسته عن الشعر ، وما كانت كتاباته عن حافظ إبراهيم إلا كتابات ناقد دارس متعمق ، وقد عرضنا من قبل لدراسته لحافظ ، وهى الدراسة التى تبرا منها ، ومع ذلك فقد أنكر عليه الدكتور محمد مندور هذا التبرؤ^(١) وكتب يقول :

« فى رأينا أن الكثير من ملاحظات المازنى الجزئية فى هذه المقالات الأخيرة من الكتيب يستحق الاعتماد ، كما أنه مما يشهد للمازنى بالفطنة وسلامة الذوق ، وسعة المعرفة بالشعر ، جوده ورديته ، وبذلك نخلص إلى أن هذا النقد لا يمكن اعتباره كله هراء كما زعم المازنى ، وإن يكن العنف والتحامل والإسراف واضحة فى الكثير من أجزائه . . » .

ويمكن أن يقال : إن هذا العنف ظهر كذلك فى نقده للمنفلوطى . . حيث وصف كتاباته - وأدبه - بأنه أدب الضعف والنعومة ، وأخذ على المنفلوطى إسرافه فى العاطفية إسرافاً يمكن تفسيره بالافتعال والنعومة والتطرى . . إنه ليتساءل :

« ماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يُعدّ من أجله كاتباً أو أديباً ، إلا إذا كان الأدب كله عبثاً فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيوخنا المائتين يقول : إن فى أسلوبه حلاوة . ولو أنه قال : نعومة لكان أقرب إلى الصواب ، ولو قال : أنوثة لأصاب المحز . . » . . « ولست بواجد

(١) د. محمد مندور : النقد والنقاد المعاصرون - فصل المازنى ناقدًا - ص ١٣٦ .

شيئاً من هذه الخلاوة في كلام المنفلوطى ، سواء في ذلك شعره ونثره ، لأنه متكلف متعمل ، يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها ، وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب إلى الصواب ، ولكنه ليس كل الصواب ، لأنه متجاوز ذلك ، ذاهب إلى أدنى منه ، وليس أدنى من ذلك إلا الأثوثة ، وهى أحط وأضرّ ما يصيب الأدب ، ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيعونها ويعجبون بها ، ويبلغ من استحسانهم إياها أن يشجعوه ويقروه بالكذِّ في إبراز ما ليس أمثل منه للرجولة وأعصف^(١) .

وهكذا تجده يعنف بالمنفلوطى ، ويجرده من كل قيمة ، سواء فيما اتخذ من أسلوب ، أو عالج من موضوعات ، أو قدم من فكر .

وليس من شك في أن هذا النقد - وقد قيل في مطالع الشباب والسن غضة ، والآمال عريضة - قد تميز بالعنف ، والاندفاع ، وهو وإن كان صواباً إلا أنه ليس كل الصواب ، فليس كل أدب المنفلوطى على هذا النحو ، وليس أسلوبه شيئاً بهذه الصورة ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، فقد كانت كتابات المنفلوطى متميزة بشاعرية العبارة ، ورقة الأسلوب مع فخامة الألفاظ ، وكانت جملة وتعبيراته ذات وقع جميل على السمع ، حتى ليتمكن حفظها وترديدها من الذاكرة في يسر وسهولة ، ولا تزال كتبه تجد - حتى اليوم - إقبالاً وقبولاً . . وإن كانت موضوعاته كلها تميل إلى الحزن ، وإلى المبالغة ، وإلى وصف ما في الحياة من آلام ، فإن هذه الموضوعات لتلذ للكثر الكثرة ، شأنها في ذلك شأن الأغاني العديدة التى يشكو قائلوها من الظلم ومن المهجر ومن الفراق .

فالمنفلوطى في نقد - أو نظر - المازنى مظلوم مظلوم . . وما أعتقد إلا أن المازنى قد راجع نفسه ، وعدل عن هذه الآراء ، وآية ذلك أن المازنى لم يعد

(١) الديوان - طبعة دار الشعب - ص ٨٤ ، ٨٩ .

إلى الحديث عن المنفلوطى مرة أخرى بعد كتاباته عنه في (الديوان) ، ولو أنه سُئل صراحة لقال ما قال عن شعر شوقى : لقد ظلمته . . فعنده من الجيد الكثير .

وللمازنى أسلوب في النقد يقوم على المراوغة في بعض الأحيان ، حينما يُطلب إليه أن يعرض - أو يتعرض - لكتاب ، ليس محل رضاه أو تقديره ، وهو في نفسه لا يريد - أو لا يحب - أن يُغضب من طلب إليه . . ومن ذلك ما يقال من أن كتابته عن الأدبية (مى) كانت تلبية لرغبة صديق عمره ، وصفو روحه : العقاد . . وكان هذا الأخير ممن لهم علاقة طيبة - بل ربما كانت علاقة حب - مع تلك الأدبية . . وكان المازنى - على عكس ذلك - لا يرى فيما تكتب ما هو جدير بأن يحتل مكانة متميزة . . ومن هنا جاء نقده لكتايبها على النحو التالى :

« تلقيت كتابي الأنسة مى - الصحافة ، وظلمات وأشعة - في ساعة نحس ، وكنت قد باعدت بينى وبين الأدب وطلقته ثلاثاً ، أو على الأصح ، فترت عنه ، وضعفت عندى بداعته ، ثم قلبت القضية ، وعكست المسألة ، وحملت الأدب عيى ، وزعمته أصل البلاء والداء العياء ، وإذن فالنجاء منه النجاء . وفي الكتب - كما في الناس - المجدود ، والمنحوس ، والمرموق من القلوب ، والبغيض إلى النفوس . . وهى تُلَقَى من تصارييف الأيام وانتقال الأحوال مثلما يلقي كُتَّابُها وقراءها - وغير كتابها وقرائها - سواء بسواء . فكم من كتاب جليل لازمه الخمول ، كأنه حين يخرج من المطبعة سقط في جب ، وكم من مؤلف قيم عَبَر «هولاكو» على جُثته ، وأفاض روحه في وثبته ، فليس الناس وحدهم يموتون ، ولكن هى الكتب أيضاً تحيا وتموت ، وتطول أجالها وتقصُر ، وتبيت جميعها ، وتصبح مفارقة . . وقلت لما تلقيت الكتابين : يا لها من ثرارة ! وأحسب أن الواجب يقتضى أن أقرأهما وأعنى بتدبرهما ثم أكتب عنهما . لاشك أن هذا هو

واجبى - على الأقل فى رأس آنستنا - فما أثقل الواجب ! وما أعظم شكى فى إخلاص من لا يفتنون يتغنون بحمده ويشيدون بحسنه وجلاله ! من الذى يحب (الواجب) لذاته ؟ أين هذا الفنان الذى يزاول الواجب ويتوخاه لإرضاء لعاطفته الفنية ؟ لست أنا به على كل حال . . . »

ثم يأخذ يتحدث عن الواجب فيطيل الحديث . . ليختم حديثه بقوله : « كذلك كنت أحدث نفسى قبل أن أفض الغلاف عن الكتابين ، وقد مضت على ذلك أسابيع كنت أقدر أن تكون كلها معاناة للإحساس بمرارة الإذعان لمعامل أو باعث من غير النفس ، ولكنى ما كدت أتصفحهما وأقرأ من هذا فصلاً ومن ذلك صفحة حتى شعرت كأن الواجب قد استحال رغبة ، وزايلنى انقباضى عن الأدب » (١) .

فهو قد قال الكثير لكنه لم يقل شيئاً عن صاحبة الكتابين . . فهل يمكن أن يعتبر ذلك (حُسن تخلص) . . أم أنها الطبيعة المازنية التى لا تنصرف إلا بصدق ولا تدع صاحبها يكتب إلا ما له صدى فى نفسه ، وأثر فى قلبه !

غير أن المازنى - مع ذلك - كثيراً ما كتب نقدًا لاذعًا - وصادقًا - ومن أمتع ما كتبه - وأعمقه أيضًا - نقده لطفه حسين فى كتابه (حديث الأربعاء) . . ولنقرأ مستهل أحد هذه الفصول وهو يقول :

« بسم الله أبتدىء ، وعليه أتوكل ، فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقة دكتورنا فى الحلبة التى اختارها لنفسه ، وأثرها على سواها . . وعزيز على أن أنازله وأقارعه ، فإنى أنطوى له - أو صرت على الأصح أنطوى له - على الحب والاحترام . وليتنى ما عرفته ولا خالطته ! إذن لبقيت يدي حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتتهشمه ، أو لا تضيره ،

(١) مؤلفه : حصاد الهشيم - فصل بعنوان : الواجب - ص ١٩٩ - طبعة دار الشعب .

وتوهى عظامها ، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالى إلى صاحب الكتاب ، أو يبرز لى وجهه فى كل صفحة فيه ، كأنها ظهر كتابه فى الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو ، كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتابًا ودفعه إلى الناس وقال لهم فى تواضع كله كبر : هذا ما رضيت لكم ! وما هو بسفر أو كتاب (كما أتصور السفر والكتاب) وإنما هى مباحث متفرقة (لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم) ، وبالع فى هذا الضرب من التواضع المقلوب ، فأعلن إلى الناس أنه لم يُعَنَ بهذه المباحث (العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتابًا حقًا) وأنه يعلم (أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية والنظر) كأنها أراد أن يقول : لستم أهلاً للعناية ، وأن فى وسعى أن أولف خيرًا من هذا الكتاب ، ولكن لمن ؟ لقراء الصحف السيارة - وهم - فلا تنس - جمهور القراء فى مصر ؟ كلا يا سيدى : لم يكن بد من أن يتجنب الدكتور التعمق فى البحث ، والإلحاح فى التحقيق العلمى ، إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا ! ولكم وددت - أنا المازنى - حين قرأت هذه المقدمة التى صَدَرَ بها الدكتور كتابه ، وقبل أن يصل حائك الأقدار ما بين أسبابى وأسبابه أن أعلمه احترام القراء ! ولكنى خالطته ، فأحبيته مع الأسف ! وإنى لأتمرد أحيانًا على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا ، ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يُجَابِى الأصدقاء . . فأرفع بالفأس كلتا يديّ وأشب عن الأرض ، وأهم بالضربة تفلُق اليافوح فيطالعنى وجهه الساكن ، وجبينه المشرق ، وهو جالس إلىَّ يُحَادِثُنِي ويقاسمنى ما أعانيه من المضض ، ويحمل عنى شر شطريه ، فتهدى قبضتى ، وتفلت الفأس ، وتهوى ذراعى إلى جانبي ، وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول : خسارة ! نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس ! فإن فى الجبين لالتماعًا ، وفى العظام

قوة ، وفي التركيب متانة ، وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعمول الهدم ! وليتنى كنت مصورًا ! إذن لأنطقُ هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه . وهكذا كلما نويت للدكتور نقدًا أراني أمسح له جبينه وألاطفه وأرثيه ! وإنى لأنقم من نفسى هذا ، ولكن ما حيلتى ؟ لست أرى لى خيارًا . . هذه الأسلحة مُلقاة أمامى ، تتخطى يدى من بينها كل درع سرده تنكسر عليها النصال ، ولا تتقى إلا درعًا من الكتان لا تقى ولا تغنى ، وتدع المعاول والفئوس والقواضب والسوط وتناول ما هو بخيط الحرير أشبه . . لا بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح ! » .

ولقد كان من أطرف وأعمق ما كتبه المازنى نقدًا لأسلوب طه حسين حيث يقول (١) :

« والآن ما رأينا فى أسلوب صديقنا الدكتور طه حسين ؟ الحق أن هذا الموضوع يروق فيه الكلام ! ولقد بدأت الكلام وفى عزمى أن أفيض فى بيان رأى فى الأسلوب ، ولكنى لم أكد أسود بضعة سطور حتى ألفيت نفسى أوجز وأوجز ، وأوصد كل باب موارد فى طريقي ، وأضيق دائرة البحث ، ثم إذا بى أسأل نفسى : ما رأى فى أسلوب الدكتور ؟ ولقد تقمصنى والله عفريت النقد ! وإنى لأحس أن عيني قد احمرا ، ويبلغ من إحساسى بذلك أو توهمى إياه أنى أهم بالتطلع إلى وجهى فى المرآة ! ولا أكنم القراء إنى صرث أؤمن بأن لكل منا شيطانًا ، وأحسب شيطانى من أحبب الشياطين ، فإنه يزج بى فى مآزق لا أرضاها لنفسى لو كان الأمر لى ، وإن على مكتبى لأكثر من خمسة عشر كتابًا أستطيع أن أتناولها بما شئت من النقد وأنا آمن أن ألقى أصحابها إذ كنت لا أعرفهم ، ولكن شيطانى الخبيث ظل يخيلنى بكتاب الدكتور حتى أخرجه من بين أخواته وقلت له : (تعال يا هذا) ،

(١) كتابه : قبض الريح : فصل الأساليب والتقليد - ص ٣٥ - طبعة الشعب .

وأخذت أقلب صفحاته كما يفعل المرء بالخروف يريد أن يشتريه لعيد الأضحى . . والحق أقول إنه أعجبنى ! وأنا ألقى الدكتور كل يوم وأحادثه أكثر مما أحادث نفسى ، ولكم قلت لنفسي وهو لا يدري : (لا يا شيخ ! دع كتاب الدكتور إلى سواه ، فإن للزمالة حقًا واجب الرعاية ، وستجبل أن تلقاه بوجهك هذا إن نقدته) . ثم لا أكاد أخلو بنفسي حتى يهمس فى أذنى ذلك العفريت اللعين : إن الأدب فوق الصداقة والزمالة ، وإن (بروتوس) كان يقول : (إنى أحب قيصر ، ولكن رومية أحب لى) ، وإن لك كتابًا كما له كتاب فلينقده إذا أحب ، وليس من شأن النقد الأدبى أن يفسد ما بين الصديقين . وهكذا حتى اقتنعت وتناولت القلم ، فكتب به الشيطان ما يأتى :

- الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ، ذكى الفؤاد ، جرىء القلب ، تعجبك منه صراحته ، وتقع من نفسك رجولته وأنفته ، ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاءه ، ويثقل عليك أحيانًا اعتداده بنفسه ! ولما كان ألف أن يملئ كتبه ورسائله ومقالاته ، فإن كتبه وحديثه حين يجد فى مستوى واحد ، كائنًا ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى أحاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيآت ، ويندر فى غيره مثل ذلك ، ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام ، وأن يجعل الجمل قصيرة ، فلا تطول مسافة بين أولها وآخرها ، وإن يغرى بالتكرير والإعادة إلى حد ما ، كما هو الشأن فى الخطابة ، ومن هنا كان أسلوب الدكتور طه خطائياً ، أو قل : إن الصبغة الخطابية فيه أغلب من الصبغة الكتابية ، وخصائص تلك ومميزاتها أوضح ، فهو فى الأغلب والأعم يوجه الخطاب إلى القارئ كما تفعل حين تحدث جليسا لك ، ويقصر جملة ويؤكد عباراته بالتكرير والإعادة ، ويلتمس التأثير من طريق ذلك ، حتى وأنت تقرأ كلامه كأنها كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة ، ويومئ بأصبعه لما وصل إلى تلك ، إلى آخر ذلك .

والخطابة فن مختلف جدًا عن فن الكتابة ، وأحسب أنه لو كان الدكتور قد ألقى هذه الرسائل ولم يكتبها ، لما جاءت إلّا كما هي الآن ، ومن شاء أن يكون منصفًا وأن يوفى كتابة الدكتور حقها ولا يعدو بها مكانها فلينظر إليها بهذه العين ، وليزن بها ثوزن به الخطابة لا بما تُقدَّر به الكتابة .

إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة ؟ نعم ! ولا أراها إلّا خطبًا مدونة . ولست أريد أن أقف حتى هنا ، بل أزيد على ذلك وأضيف إليه أنها خلّت من مزايا الفنين جميعًا . . . !! فأما مزايا الكتابة فقد عطلت منها ، لأن صاحبها يملئها إملاءً ثم لا يعود إليها بتنقيح أو تهذيب ، ولو أنه كان يتعهدا بعد أن يملئها بشيء من الإصلاح خلّت على الأرجح من أكثر ما فيها من التكرير ، ولعلّج بعض ما يعثرها من العيوب ، ولكنه لا يفعل ، وقد صدق في قوله : (إني ما كتبتُ فصلًا إلّا وأنا أعلم أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف العناية وهذا النظر ، حتى إذا فرغت منه ونشرته السياسة عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها ، معتزمًا أن أستأنف العناية به والنظر فيه ، مستحيًا أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح ، والأيام تمضى ، والظروف تتعاقب ، مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائمًا بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر ، وأى الكتاب وأى الباحثين لا يشكو مثلى هذا في مثل هذه الأيام التى نعيش فيها ؟) .

وأما خلوها من مزايا الخطابة فلأنه لا يملئها على أنها خطب تُلقَى ، بل على أنها مقالات وفصول تُقرأ ، وإن كانت طبيعة اعتياد الإملاء تجعلها أقرب إلى الخطب منها إلى الرسائل . ومتى كان هذا هكذا ، فأى غرابة إذا قلنا إنها خالية بما لم يتحرّره فيها . أى من خصائص الخطب ومزاياها ؟ وكما أن الخطب

تفقد كثيرًا من قوتها وتأثيرها في نفوس الناس حين يقرءونها ، كذلك مقالات الدكتور من عيوبها أن الناس يقرءونها ولا يسمعونها يلقيها .

ولا شك أن أظهر عيب في مقالات الدكتور هو التكرار والحشو ، وما هو منهما بسبيل ، وعندنا أن علة ذلك ليست فقط إنه يُملئ ولا يراجع ما يملئ ، بل الأمر يرجع في اعتقادنا إلى سببين جوهريين ، أولهما : أن ما أصيب به في حياته من فَقْدِ بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه في الأسلوب الذى يتناول به موضوعاته ، وفي طريقة العبارة عن معانيه وأغراضه ، ولسنا نتحرج أن نذكر ذلك ، فإنه أعرف بنا من أن يشك في عطفنا ، بل نحن أعلى به عينا ، وأسمى تقديرًا من أن نعتقد أن به حاجة إلى هذا العطف ، وليس يخفى أن المرء إذا حِيلَ بينه وبين المراثيات ضعف أثرها في نفسه ، ولم تعد الكلمة الواحدة تغنى في إحضار الصورة المقصودة إلى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما نعتقد إلّا الإسهاب ومحاولة الإحاطة ومعالجة الاستقصاء والتصفية .

وثانى هذين السببين : أنه أستاذ مدرس ، وقد طال عهده بذلك ، والتعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط في الإيضاح ، والإطناب في الشرح ، والتكرير أيضًا ، بل تفعل ما هو شر من ذلك ، وأعنى أنها تدفع المرء عن الأغوار والأعماق إلى السطوح ، وبعبارة أجلى : تضطر المدرس أن يحتجب التعمق والغوص ، وأن يكتفى - ما وسعه الإكتفاء - بما لا عُسرَ في فهمه ولا عناء في تلقّاه . . . وتلك آفة التدريس ، ولولا أنى أعرف كَلَفَهُ به ، وإقباله عليه ، وهشه له ، لدعوتُ له الله أن يريحه منه كما أراحنى .

قال المازنى : « وهنا صرف الله عنى السوء وأذهب عنى الشيطان ، فوضعتُ القلم وأنا أحمد الله أن لم يستكتبنى إلّا هذا التحليل البرىء » .

وإذا كنا قد أطلنا النقل حتى لم نجد سبيلًا للاجتزاء ببعض المقال عن بعضه الآخر ، فمرجع ذلك عدة أمور :

- أولها : رغبتنا في أن ننقل صورة من نقد المازنى كاملة .

- وثانيها : أن الموضوع « المنقود » من أهم الموضوعات : أسلوب طه حسين . . . وهو الأسلوب الذى فُتِنَ - ومازال يفتن - قراء العربية . . . ويكفى أن طه حسين وُصِفَ - ويوصف - بأنه « عميد الأدب العربى » .

- وثالثها : أن هذا النقد حتى وإن لم توافق عليه إلا أنه لا يسعك إلا أن تحترمه .

- ورابعها : أنه يعطينا صورة من المازنى الناقد ، والساخر ، والضحك ، والوفى ، والصادق ، والمخلص فى آن واحد .

وخامسها : ما رأينا أن نشرك فيه قارئنا من المتعة بقراءة هذا الفصل الذى يندر أن تجد له مثيلاً .

وبعد :

فنحن وإن لم نوافق المازنى على هذا الذى ذهب إليه بالنسبة لأسلوب طه حسين إلا أننا نقر بأن فيه بعض الحق ، وإن كان قد عمد إلى المبالغة والتضخيم . . . ومع ذلك فسوف تبقى كتابات المازنى عن طه حسين من أرق وأعظم وأصدق ما كتب ناقد عن طه حسين .

وبرغم كل ما نقلناه عن المازنى الناقد ، فقد فاتنا الكثير مما كتب المازنى ، وهو نفسه قد أشار إلى ذلك فى ختام - أو خاتمة - كتابه (حصاد الهشيم) ، فقد كتب يقول (١) :

« الكتاب كما هو الآن فى يد القارىء يمثل منزع الناشر أكثر مما يمثل نفس الكاتب . فقد أبى إلا أن يخليه من نقد المعاصرين ، ليريح نفسه من حماقات المعاتبين . وحسنًا فعل ، أو شرًا فعل - كما تريد - ومن الذى

(١) مؤلفه - حصاد الهشيم - خاتمة - ص ٣٣٤ - طبعة دار الشعب .

يستطيع الراحة ولا يستريح ؟ غير أن الكتاب بهذه الصورة يعرض منى جانبًا ، ويطوى جانبًا ويصورنى للقراء لىّن الملمس ، ويستّر أظافرى ، ويبدىنى مفتر الثغر، منزوع النيوب ، مقلوع الضروس . . . ولست أبالى كيف أبدو للقارىء . . . وما كنت لأعنى بجمع هذه أو تلك من مقالاتى ونشرها ، بعد أن طُويت مع الصحف التى ظهرت فيها ، لولا أن فرجت بذلك أزمة كانت مستحكمة ، وما أرانى أنقذتها أو أحيتها ، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسابها . . . ولعله كان خيرًا لها أن تظل ملفوفة فى أكفانها .

المازنى كاتب - بل مبدع لفن - المقال :

ربما كان الانتقال بالمقال من مجرد مساحة يشغلها كاتب بما لديه من فكرة أو رأى أو خبر ، أو مزيج من ذلك كله - إلى فن قائم بذاته . . . هو الأثر الذى أحدثه المازنى فى عالم الكتابة . كان المقال - من قبل - حشدًا من المعارف أو المعلومات أو الأخبار ، وإن تضمن بعض الآراء أو الأفكار ، تُصاغ جميعها فى أسلوب يختلف قوة أو ضعفًا باختلاف كاتبه وحظه من الإتقان للغة ، والإحاطة بفروعها من نحو وصرف وبيان وبديع - وإن احتوى فى بعض الأحيان على صورة فنية فإنها لا تأتى إلا مصادفة . . . حتى كانت مقالات المازنى ، فإذا هى فن خالص ، ونسيج متميز ، وصياغة غير مسبوقة . . . وإذا به يجعل من (المقال) عالمًا ساحرًا يرتاده الكثيرون ، يُسايرون المازنى فى طريقته ، ويرتادون ما يرتاده من مجالات متنوعة . . . وإذا بالمقال يصبح (المادة) الأساسية فى مختلف الصحف والمجلات ، وإذا به يحتل المكانة الرئيسية ، وإذا بنا نرى الكثيرين ممن أصبحوا مبدعين فى مجاله . . . فضلًا عَمَّن عرفنا : طه حسين - العقاد - هيكل - أحمد أمين . . . فإننا نقرأ لعبد العزيز البشرى ، ولمحمد فريد أبى حديد ، ولمحمد عوض محمد ، ثم لزكى نجيب محمود . . . وسلامة موسى . . . نقرأ لكل هؤلاء مقالات هى فى حقيقتها أبحاث ، وصور ، ونتاج أدبى ، وفنى ، وفلسفى ، وسياسى ،

اجتماعي ، واقتصادي . . رائع ، يقوم على الإبداع الفني من ناحية ، وعلى الثقافة الموسوعية من ناحية أخرى ، وعلى درجات تنوع من التميز والتفرد بين كاتب وآخر ، فلكل منهم أسلوبه ، ومنهجه ، وأفكاره . . ولكن يبقى المازني بينهم هو صاحب القلم المبدع على الدوام - أيًا ما كان موضوعه - والذي يحرص في كل ما يكتب على أن يقدمه تقديمًا فنيًا فيه طرافة ، وفيه سخرية ، وفيه ثقافة دائمة . . ولا تخطيء في أيٍّ من مقالاته روحه المرحّة ، ولا نزعتة الفنية ، ولا نظرته التي تقع على ما لا يلتفت إليه الكثيرون .

وكثيرة كثيرة هي المجالات التي ارتادها المازني . . حتى لقد جعل من الصحف موسوعة ثقافية تغني قراءها ، وتثري حصيلتهم من الفكر والثقافة والآراء الصادقة والنظرات الصائبة .

وقد نلاحظ أن معظم كتبه - حتى الروايات - قد نُشرت فصولاً منجّمة في الصحف والمجلات المختلفة .

إن مقالات المازني في الصحف لأكثر من أن تُحصى . . وإن أي إحصاء لها سوف يغفل عن جانب كبير منها . . لقد بلغ مجموع ما أحصاه كتاب : أعلام الأدب المعاصر في مصر : إبراهيم عبد القادر المازني ، الذي أعده الأستاذان حمدي السكوت - ومارسدن جونز - من مقالات نُشرت للمازني في مختلف الصحف والمجلات (٢٠١٢) مقالاً . . وذلك إضافة إلى كتبه وأحاديثه . . فانظر كيف كان كاتبًا ثريًا مثريًا ، حتى ليتمكن القول إنه ما كان يمر يوم إلا وتقرأ له مقالاً أو أكثر في العديد من الإصدارات الصحفية . . وذلك كله إضافة إلى ما نشره بدون توقيع ، وما أحسبه إلا كماً كبيراً أيضًا .

وقد أفرد الدكتور محمد يوسف نجم بين صفحات كتابه (فن المقالة) حيزاً كبيراً تناول فيه فنية المقال عند المازني . . ففي أكثر من موضع رصد سمات (المقالة) عند المازني :

« تلجأ إلى تقسيم المقالة الحديثة إلى نوعين هما : المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية . . في النوع الأول تبدو شخصية الكاتب جليلة جذابة ، تستهوي القارئ ، وتستأثر بلبه ، وعدته في ذلك الأسلوب الأدبي الذي يشع بالعاطفة ، ويثير الانفعال ، ويستند إلى ركائز قوية من الصور الخيالية ، والصفة البيانية ، والعبارات الموسيقية ، والألفاظ القوية الجزلة . والمثل الواضح على ذلك مقالات (لام) في الأدب الإنجليزي ، ومقالات (المازني) في أدبنا » (١) .

ويقول في موضع آخر :

« ولكن القيمة الحقيقية للمقالة ، تعتمد في المقام الأول على مدى تحليلتها للشخصية الإنسانية تتوارى خلفها في خفة وحياء . . إن شخصية الكاتب الأليفة العذبة هي التي تستهوي القارئ ، وتملك عليه أقطار نفسه ، بما فيها من خفة وسحر ، وجاذبية وتألّق ، وذوق مصقول لا تفسده فظاظة ، ولين لا يتدنى إلى درجة الميوعة . وكذلك مقالات المازني لا تستهويننا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء المنيرة ، بل بما فيها من براعة في التصور ، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبسًا وتجهّمًا » (٢) .

وأحسب أن عبارته الأخيرة كان ينبغي أن تُصاغ هكذا : « مقالات المازني قد لا تستهويننا أحياناً بما فيها من الأفكار العميقة والآراء النيرة ، ولكنها تستهويننا دائماً بما فيها من براعة في التصور ، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبوسًا وتجهّمًا » .

وداعينا إلى ذلك هو ما قدمناه ممّا كان يتسم به فكر المازني - في الحقيقة - من عمق وأصالة ، وربما كانت نزعته إلى الفكاهة والاستخفاف هي التي

(١) دكتور محمد يوسف نجم : فن المقالة - دار الثقافة ببيروت - طرابعة - ص ٩٦ .

(٢) المرجع المذكور - ص ١٢٩ .

أدت بالبعض إلى التوهم بأن فكره غير متعمق . . . ولكنه ظن ما يلبث أن ينمحي بعد دراسة فكر المازني دراسة مؤصلة . . . وهو ذاته ما قرره نفس الكاتب في موضع آخر حيث قال : « . . . وهذا لا يعنى أن المازني أقل حكمة وعقلاً من رفيق عمره ، ورصيف (*) صباه - العقاد - بل إن نظريته إلى الحياة في بعض الأمور أشد عمقاً ، وأكثر أصالة ، ولكنه مرح ، فكّه ، ثرائه ، عابث ، يرضيه أن ييث قارئه كل ما في قلبه ، أمّا العقاد فلا يتيح لأفكاره أن تستقبل القراء إلا بعد أن يستمد لها مقصاً حاداً قاسياً لا يرحم» (١).

والدكتور نجم يفرد الفقرات التالية ليرسم صورة كاملة لفنية المقالة عند المازني (٢).

« . . . والمازني كلما حاول الجد - وهو قلما يحاول ذلك - خائنه طبيعته ، فاستثقل مسوح الوعاظ ، وألقى عن كاهله طيلسان المفكر العابس ، أو الأستاذ الجامعي المتزمت . فكأنه كان يكتب كتبه ، ونصب عينيه قوله مونتني المشهورة : (هذا الكتاب يقوم على موضوع بيتي خاص ، وقد وقفته على أصدقائي ، حتى إذا ما افتقدوني - وهذا ما سيحدث سريعاً - وجدوا فيه بعض ملامح من أحوالي وفكاهتي . وهكذا يتاح لهم أن يحتفظوا بمعلوماتهم عني على صورة أكمل ، وبطريقة أكثر حيوية) .

ولذا فهو يسعى أن يعرض على القارئ صورة نفسه ، صادقة واضحة ، بما فطرت عليه من دماعة أو جمال ، وبما امتازت به من أساليب في التفكير والتأمل ، وما علق بها من غبار التجارب ، وما جنته من ثمار الحياة ، حلوها

(*) يقال : فلان رصيف فلان ، أى : يحاكبه في عمله ويألفه ولا يفارقه . [انظر : المعجم الوسيط - مادة « رصيف »] .

(١) المرجع المذكور - ص ٨٦ .

(٢) المرجع المذكور - ص ٨٦ : ٨٩ .

ومرّها ، ناضجها وفجّها ، وكان إذا ما وضع القلم على القرطاس ، وانهالت عليه الأفكار الطريفة ، والصور المونقة ، واللفتات البارة ، فتدفق في حديثه وتبسط ، وأفرغ ما في نفسه دون تمويه أو تصفية ، وكأنه يرى أن حياته الخاصة ، ملك للبشرية ، فلا يضمن على الورق ، صدقها القارئ أو لم يصدقها . وهو لا يعرض الموضوع بمقدماته ونتائجه ليقدم إليك صورة واضحة من عملية التفكير ، بل يحيلك إلى موضع الأسرار من نفسه ، فيعرض عليك انبثاق التجارب فيها ونموّها واكتماها . وهو يرى أن كل شيء تقع عليه عينه يصلح لأن يكون موضوعاً للكتابة ، فهو يتقبل المنحة ، سواء كانت من يد عجوز شمطاء أو من يد غادة لعب . وعالمه هو عالم الأساطير والخرافات الشعبية ، تنتزى فيه أشباح الموتى واللصوص ، وقطاع الطرق ، وخفافيش الليل (١) . في صميم الحقيقة في مجتمعه ، فهو يدور من حولها ، ولا يحوم ولا يرد ، يضحك من نفسه ، ومن قارئه ويجسم عاهاته ونقائصه ، ويتصرف تصرفات (دونكيشوتية) ويجول في آفاق الحلم واليوتوبيا . وهو قادر على أن يفاجئك دائماً ، وأن يأتيك من مأمئك بذهن متوقد وحيوية متدفقة ، ومرح يبعث على الضحك المجلجل الصريح .

يبدأ مقالاته أحياناً ببعض الخواطر العابرة ، أو الأفكار التافهة ، ثم ينتقل إلى الجد ، ولكن بطريقته الخاصة ، وهو يخدع القارئ عن نفسه ، ويوقعه في حباله بسهولة ويسر ، حتى يظن أنه أمام عابث لاه ، لا عمل له إلا السخرية والضحك ، ولكنه في الحقيقة بعيد الغور عميق القرار . . . فهو حين يحدثك عن خصوصياته ، عن زوجه وابنته وأبنائه وجدته العجوز ، يشعرك بأنه يجاذبك أطراف حديث سخيّف لتزجية الفراغ وقتل الوقت ، فلا

(١) نجد لذلك أمثلة من تلك الصور التي تضمها دفنا كتابيه : صندوق الدنيا ، وخيوط العنكبوت . حيث إن بهما فصولاً عديدة عن صور من طفولته وصباه . . . هي من أمتع ما عرفه الأدب العربي من كتابات نثرية .

تتخذ بذلك ، إنه يخفى بعمله جوهر الحقيقة - حقيقة النفس المثالة الحزينة، التي ترى أن خير وسيلة لنسيان الألم هي مبادرته باللهو والعبث واللامبالاة . فمرحه مُبَطَّنٌ بحزن دفين ، ومن هنا نلمس هذا التناقض الخفى في آرائه وصوره . فهذا المَرَحُّ المولع بالفكاهة والنكتة يقشعر بدنه ، ويقف شعره عند ذكر الموت . وهذا الشاك الذى لا يؤمن بأى شىء ، يتعلق دومًا بحبال الدين ، ويتدنى في إيمانه إلى منزلة إيمان العجائز ، ويرنو بعينه إلى المثل العليا ، ولكنه يرى في نفسه عجزًا عن بلوغها ، منبعه كسب رُكْبٌ في طبيعته ، أو شك في قدرته وفضائله . وهو أثناء ذلك كله متمسك بأثارة من الفكاهة التي تظهر على صور مختلفة ، وتتجلى في مواقع متباينة ، هي مرح سطحي هنا ، وعبث لاهٍ هناك ، وسخرية لاذعة مُرَّةٌ هنالك . وبهذا وحده كان المازنى نسيج وحده في أدبنا ، بل هو ظاهرة لم تتكرر في أدبنا المعاصر ، وإن تكررت مرتين في أدبنا : في الجاحظ والشدياق .

ولعل خير ما نختم به هذا الموضوع هو تلك الخاتمة التي أوردها الدكتور محمود أدهم في نهاية بحثه القيم : إبراهيم عبد القادر المازنى بين التاريخ والفن الصحفى - فقد كان ختام بحثه المطول قوله :

« نقول .. إن هذه الجوانب المازنية كلها ، سوف تبقى من الرجل للتاريخ والفن والدرس الصحفى معًا :

١ - إنه من أفضل وأصدق (النماذج البشرية) التي تقدم صورة واضحة لمكونات الكاتب الصحفى .. وثقافته .. واهتماماته .. فالرجل قد كرس وقته وجهده منذ أيام نشأته الأولى وحتى وفاته للقراءة والدراسة والثقافة العامة .

٢ - إنه من خلال حياته عامة ، وكتاباته خاصة ، يقدم الدليل الحى

والهام أيضًا ، على ضرورة أن يكون محررًا - أو كاتبًا - قريبًا من المجتمع ، لصيقًا بأفراده ، يفكر كأحدهم ، ويحس بإحساسهم ، ويشعر بمشاعرهم ، يفرح لفرحهم ، ويتألم لآلامهم ، ويترجم ذلك كله إلى مادة كتابية تنعكس عليها صور اهتماماتهم ، وتشخيص أدوائهم ، وتحاول أن تقدم لها العلاج المناسب ، والدواء الناجح .

٣ - فإذا انتقلنا من ذلك إلى جانب تدريس ما يعنيه القول المأثور : الأسلوب هو الرجل أو الشخص نفسه ، وما يتصل به من ظلال ، وما يرتبط به من صور ، لم نجد كذلك أفضل من تلك الزوايا العديدة التي تقرر في النهاية أن حياة المازنى ، بما خاضه من تجارب ، وبما عرّكه من خبرات ، وما طاف به من قراءات ، وما سبر غوره من دراسات .. جميعها أورثته نظرة خيرة ، وفكرًا شموليًا ، وحسًا مرهفًا ، ودقة ملاحظة تلتقط - كأفضل المحررين - أصغر وربما أقل التفاصيل وأكثرها (تفاهة) في نظر البعض ، فإذا هي تتحول إلى لغة تقرأ خلال سطورها ذلك كله ، وإلى أسلوب يعكس صدق التجربة وعمق الإحساس ، وفضيلة الثقافة .. نعم .. كان أسلوب المازنى هو خير دليل عليه ، وعلى حياته ، وصورها ، وشاهدها .

٤ - .. وإنه من طليعة الكُتّاب الذين تحملوا مسئولية الكتابة الوطنية والقومية معًا ، في وقت عز فيه هؤلاء ، بل وفي موضوعات جديدة تتحدث عن جرائهم وشجاعتهم ، وصدقهم مع أنفسهم .. معًا دون حذف أو وجل من منصب أو جاه أو سلطة أو نفوذ .

بل إنه مما يُحسب له تمامًا على الرغم من اختلاف الأوقات والسياسات والزعامات أنه مَدَّ بصره في اتجاه جمع شمل العرب ، وكان من أوائل الذين تحدثوا - وبإسهاب - عن وحدة العرب ، وتضامنهم خلال هذا القرن .

٥ - إنه في كتاباته الصحفية كان يكتب على الفور ، وكانت كتابته (بنت

لحظتها) . . . حالية دائمة ، تعكس حسًا صحفيًا تحريريًا بالغ الدقة ، ومقدرة فنية على تصيد الأفكار في سرعة مذهلة ، وعلى تغطيتها من جميع زواياها . . . كل ذلك ، في أى مكان يوجد به ، في منزله أو مقر الصحيفة ، أو المقهى ، أو حتى وبعض الأصدقاء يجلسون إليه .

٦ - إنه يعتد دون شك بأفكاره المتنوعة ، ومادته غير الحالية ، وأساليبه التى جمع فيها بين الأسلوبين الأدبى والصحفى ، وبها أضفاه على جوانب تحرير وحداته الفنية ، من مزيج رائع يجمع بين الذوق الأدبى والحس الصحفى .

٧ - وأما في جانب فنون وأنماط التحرير الصحفى ، وتأسيسًا على ما سبق تقديمه من مادة ، فإننا نستطيع أن نقول : إن الرجل كان - وفي وقت واحد :

- من أبرز رواد فن (المقال القصصى) فى الصحافة العربية عامة ، والمصرية خاصة ، بكل ما يتصل به من فكر ومضمون وتعبير وأساليب .

- وإنه كذلك من أبرز رواد (المقال الفكاهى) فى هذه الصحافة ، بما يتصل به كذلك من أفكار ومضامين وأساليب تحريرية وملامح كاريكاتورية وساخرة .

- وأن له إبداعه الأدبى الصحفى عامة ، والمجالات خاصة ، فى مجال « الصور القلمية » الصحفية هنا ، بما اتصل بها من دقة انتقاء ، وحسن تصوير ، وحتى فى حالات نقدها ، أو الهجوم عليها .

- إن مقالاته النقدية عامة ، والنزالية خاصة ، والتحذيرية على وجه التحديد ، لها موقعها « الاستراتيجى » ، والهام والفريد أيضًا على خريطة هذا النوع من المقالات .

٨ - وأما فى جانب وحداته التحريرية الفنية : العناوانات ، والمقدمات ، والنصوص ، والنهايات ، فإن دراسة النتاج المازنى تضع يد الدارسين والباحثين على أن الرجل :

- من خيرة صنّاع ومبدعى (العناوانات) على كافة ألوانها وأشكالها .

- وقد أتقن كتابة عدد من المقدمات بما يدل على معرفته الكاملة بها ، وفهمه لمسئوليتها .

- وأما عن النص أو المضمون ، فهو أحد المبرزين فى كتابة مادته وفق نوازل القصة والعرض والحديث ، بل والحوار أيضًا ، بل لقد مزج مزجًا يثير الإعجاب بين أكثر من قالب تحريرى واحد .

٩ - ثم كتاباته الداعية إلى حرية القلم والتعبير ، المؤيدة لها ، الحائثة عليها ، والتى تعتبر صفحة بيضاء فى تاريخ حرية الصحافة . . . ويتصل بذلك دفاعه عن مهنة الصحافة عامة وجدارتها بأن تكون من المهن العظيمة المحترمة ، واستحقاقها لنظام يحفظ عليها كرامتها ، ويليق بها ، ومشاركته من خلال ذلك فى إنشاء نقابة الصحفيين ، بما مرّ بها من تطورات ، وعضويته لعدد من مجالسها الأولى . . . كما يتصل بذلك أيضًا دفاعه عن غيره من المحررين والكاتبين ، فى حال تعرضهم للاعتقال أو السجن . . . وهو موقف كريم يحسب له . . . وللقلة من أمثاله . . . (١) .

(١) دكتور محمود أدهم : رواد الصحافة العربية (٢) - إبراهيم عبد القادر المازنى بين التاريخ والفن الصحفى - ص ٢٤٩ : ٢٥٥ .

الخاتمة

هذا هو المازنى (كاتب مقال) . . ولو راجعنا كتبه التى نُشرت وما ضمته مما كتبه من مقالات لوجدنا أنها لم تضم إلا قلة قليلة مما أبدع المازنى من مقالات شغل بها الصحافة والصحف والمجلات طوال أربعين سنة متصلة . . ظل طواها يغذيها بكتاباته : مقالات وقصص ، وصور قلمية . . ولا يزال هذا الإبداع « المقاتل » تنطوى عليه تلك الصحائف التى لم يعد إلى قراءتها أو الاطلاع عليها من سبيل .

إننا بإزاء إنتاج ضخم ومتنوع ، بل هو ثروة نعتز بها ، وينبغى أن نعمل على إحيائها وبعثها ، وإعادة نشرها على قارئ اليوم ، وإننى لأثق أنها سوف تلقى قبولا وإقبالا متقطعى النظر.

وعسانا أن نوفق إلى استخراج بعض هذه الكتابات من بطون بعض الصحف والمجلات ، وإن كان جهدنا لن يقوى على الغوص فى كل الصحف والوصول إلى إبداعاته المتنوعة .

إننا بإزاء مهمة على قدر كبير من الأهمية ، فليت الجهود تتضافر لاستخراج إبداعات المازنى ، وتصنيفها ، ودراستها ، وعرضها . . فهى بذيرة بذلك ، وتستحق كل جهد يُبذل من أجل إحيائها .

ورحم الله المازنى بما أهدى من فكر ، وبما قدّم من فن ، وبما أبدع من
إبداعات ، فقد كان رائداً صادقاً ، وعلماً متميزاً ، وقلماً معبراً - رحمه الله
تعالى .

الفهرس

٧	كلمة وإهداء
٩	من رثاء العقاد للمازنى
١١	الفصل الأول : المازنى ومسيرة حياته .
١١	حياة عريضة
١٢	طفولة خالدة
١٥	صورتان يرسمهما المازنى لأبيه وأمه
١٨	ضاع المال وبقي الستر
٢٢	بيت وطفولة وشقاوة
٢٥	في الكتّاب ثم المدارس
٣٢	المازنى مدرّساً
٣٥	المازنى صحفياً
٤١	الفصل الثانى : المازنى وعالمه النثرى
٤١	المازنى ناثراً
٤٤	المازنى كاتباً متميزاً
٤٩	المازنى ساخرًا
٦٥	المازنى وعالم الرواية

٦٢	لمحات عن إبراهيم الكاتب وإبراهيم الثانى
٧٤	المازنى وعالم القصة القصيرة
٧٥	نظرة إلى عالم المازنى القصصى
٨٣	المازنى والصور القلمية
٨٤	بلدتى القاهرة
٨٩	المازنى وكتاباتة النقدية
٩٩	المازنى كاتب - بل مبدع لفن - المقال
١٠٩	خاتمة

* * *



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043